□ الفصل الثاني □

الوضع السياسي في منطقة السودان الغربي

1 - سنغاى القوى السياسية الأولى والانتماء السكاني ومراحل تكوينها

2 - الحضور المغربى بالسودان الغربي، وحالة المنطقة عند مجيئه.

3 - الطوارق كقوة سياسية فى المنطقة.

4 - قبائل الفلان وثقلها السياسي في المنطقة.

5 - قبائل البرابيش وثقلها في المنطقة.

الوضع السياسي في منطقة السودان الغربي :

يحاول هذا الفصل أن يأتي بشيء جديد، من خلال توظيف بعض المخطوطات التي لم تر النور وهذا الطرح هو :

أن سنغاي لم تكن القوة الوحيدة التي كانت تهيمن على المنطقة، بل هناك قوى أخرى كان لها نصيب فعال ومؤثر في تسيير دفة أمور المنطقة، والمتمثلة في القبائل الضاربة، من طوارق، وفلان، وبرابيش، الذين كانوا كثيراً ما يحسب لهم حساب.

ويمكن أن نقسم القوى السياسية إلى قسمين : القوى الأولى سنغاي، والثانية قبائل الطوارق والفلان والبرابيش.

سنغاي القوة السياسية الأولى والانتماء السكاني:

بلغت إمبراطورية غانا ومملكة مالي الإسلامية شأناً عظيماً، واستطاعتا السيطرة على بطاح شاسعة، من مناطق غربي إفريقيا، ولكن أياً من هاتين القوتين لم تبلغ ما بلغته، إمبراطورية سنغاي من القوة، والسيطرة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين[1].

أما عن أصل سنغاي.. فقد أورد صاحب مخطوطة زهور البساتين، معلومات مفادها أن جد سنغاي، وجد ونكر كانا أخوين شقيقين، وأن أباهما كان ملكاً من ملوك اليمن اسمه (تراس بن هارون)، وعندما مات الأب خلفه على المُلك أخوه (يسرف بن هارون)، فضيق الخناق على أبناء أخيه أشد التضييق، فهاجروا من

(1) - الحاج محمد محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط ورقة 27.

اليمن إلى ساحل البحر المحيط [المحيط الأطلسي] التكرور، ومعهم زوجاتهم ووجدوا هنالك عفريتاً من الجن، فسألوه عن اسمه فقال (سار) فقالوا : ماجاء بك إلى هذا المكان، فقال (تك)، فقالوا وماسم هذا المحل؟ فقال : لا أعلم، فقالوا ؛ يحق لهذا المكان أن يقال له تكرور، إلى أن أورد اسم كبير الرجال، المذكورين ويدعى (وعكري ذا بن براس) وزوجته ـ (امنة بنت يخت) وهو جد قبيلة وعكري، والرجل الثاني : (سغُى بن براس) وزوجته (سارة بنت وهب) وهو جد قبيلة (سغُى). والرجل الثالث اسمه (ونكر) وهو أصغرهم، وليس له زوجة، ولكن له أمتان أحداهما تدعى (سكرى) والأخرى (كسري). فاتخذ ونكر سكرياً سرية له، وكان جد قبيلة (ونكر) عبد يدعى (بمنيك) فزوجه (كسري) وهو جد قبيلة (منيكُ) وإلى آبائهم نسبوا، ثم تفرقوا في الارض، وكان كبيرهم وعكرى سلطانهم، وسموه (كيمع)، وتعني في كلامهم مال الإرث.

وخلص في النهاية إلى أن سغى بن تراس كان أبوهم ملكاً من ملوك اليمن، واسمه تراس بن هارون[1].

وعلي الرغم من أن هذه الرواية لم تكن معروفة، في مصادر تاريخ المنطقة على حد علمي، إلا أن ورودها في هذه المخطوطة، له اعتباره وأهميته؛ لأن المؤرخ من المنطقة، والمخطوط قديم.

ومهما كانت صحتها من عدمها فإنها تلقي الضوء على عدة جوانب، ولكن قبل أن نستطرد في ذكر جوانب الرواية، نريد أن نطرح سؤالاً :

لماذا نسب صاحب المخطوط أصل سنغاي إلى اليمن؟

صاحب المخطوط وعكري الأصل، والانتساب إلى العرب وقتذاك، يعتبر شرفاً ؛ زد على ذلك أنه يعيش بين طبقات عدة، في المجتمع السوداني، يرى نفسه أرقى منها شرفاً وحضارة، ولذلك كان من الطبيعي، أن يحيط نفسه بشيء من القداسة ؛ وخاصة أنه عالم، وله عدة مؤلفات، في شتى فنون العلم.

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 105-106.

جوانب الرواية :

1 - ذكرت الرواية أن أصل سنغاي من اليمن، وأبوهم ملك من ملوك اليمن، ربما يقصد بذلك ملوك الحبشة؛ لأن سودان الحبشة كانوا ملوك اليمن في ذلك الزمان.

2 - أورد صاحب المخطوط أن أباهم ملك من ملوك اليمن، وذكر اسمه دليل على دقة المعلومات، وأن هؤلاء كانوا في اليمن أيضاً من أرفع الطبقات الاجتماعية، وهذا يضفى عليهم شرعية أكثر.

3 - كان لدى هذه القبائل نظام وراثة الحكم بدليل تولّي برن بن هارون شقيق تران أمر البلاد من بعده.

4 - الصراع بين الأسرة الحاكمة، يؤكد خروجهم من اليمن إلى الشمال الأفريقي، ومنه إلى غرب أفريقيا (السودان الغربي).

5 - توضح لنا الرواية نظام الطبقات، في المجتمع السوداني، فهناك قبائل عبيد، مثل قبيلة منيك وجدها عبد ونكر، وهذه القبائل في السودان الغربي، هي التي تختص بالرق، وتعتبر أدنى الدرجات الاجتماعية.

6 - ومن الدلائل التي تؤيد نزوحهم من اليمن، وجود بعض الأسماء العربية هنالك، مثل : آمنة وسارة بنت وهب... إلخ.

هناك رواية ثانية، أوردها صاحب مخطوطة فتح الحنان المنان، عن أصل سكان سنغاي تقول : إنهم ينتسبون إلى قبيلة سنغاي، التي كانت تقطن على ضفاف نهر النيجر الأوسط، في الفترة، ما بين القرن السابع، والقرن التاسع الميلاديين، حين غزت قبيلة (ضياء)، وهي إحدى القبائل العربية، وأسست أسرة حاكمة، عرفت بأسرة ضياء، والتي نزحت من طرابلس الغرب، وحدث تصاهر بينها وبين السكان الأصليين، وارتبطت بعلاقات وطيدة مع غانا وتونس وطرابلس وبرقه ومصر، عن طريق القوافل التجارية المارة بتادمكة[1]. واستطرد صاحب

(1) - محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السوادن، مخطوط، ورقة 27-28،

المخطوطة قائلاً : "وإذا ألقينا نظرة عامة على المجموعات التي تتألف منها المنطقة في القرن الأول الهجري، لوجدنا مجموعات التكولور، والسيرو والولوف، الذين يقطنون على ضفاف السنغال، في حوضه الأدنى، ويمتهنون صيد الأسماك والزراعة"[1].

وذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن سكان غرب أفريقيا مزيج من الشعوب الثلاثة: - الأقزام - والزنوج - والحاميين، مع ملاحظة أن شعوب غرب أفريقيا، اختلطت منذ زمن بعيد بشعوب بيضاء، من بينها العرب والعرب المغاربة[2].

كما أن هناك رأياً يقول : إن معظم شعب سنغاي، أصله من دندي، شمال الداهومي، ثم سار مع مجرى نهر النيجر، حتى وصل إلى منطقة كوكيا، ذات الخيرات الوفيرة، فاستقر بها. وهناك خضع لأمره زا الذي كان ملكاً على تلك المنطقة، وأصبح يسير وراءه في حروبه، ولكنه طمح بعد ذلك إلى المُلك، فقلب له ظهر المجن، وخضعت له شعوب مثل العرب المغاربة[3].

أماالأصول العرقية للطبقة الحاكمة.. فقد أورد صاحب مخطوطة زهور البساتين، بأن عدد ملوك سنغاي أربعة عشر، ماتوا جميعاً في الجاهلية، وأول من تقلد أمر الملك زاء الأيمن، ثم زازكى، وزانكى، وزااكى، وزاكو، ثم زا علي ثم وزابى كمى، وزابى، وزاكري، وزايم كروى وزايم ويم دنك كيبع، وزاكوكرى، وزاكنكن، والذي أسلم منهم (زاكُسى) [4]، وكان ذلك في سنة أربعمائة هجري[5].

(1) محمد مرحبا، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السوادن مخطوط ورقة 28 .

(2) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في أفريقيا الغربية، الجزائر، 1975ص 17.

(3) نقولاى زيادة، المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبى، بيروت 1967 م ص 30.

(4) زاكسي : معناه في كلامهم مسلم دم، أي الذي أسلم طوعاً وبلا إكراه (موسى بن أحمد السعدي) مخطوط ورقة 108.

(5)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 3.

Conale, J.S : Africa Noire (Pis 1954) P - 160.

أورد السعدى الأربعة عشر ملكاً من ملوك سنغاي، الذين أوردهم صاحب زهور البساتين، وأضاف عليهم عدداً من الملوك، نوردهم بالنص قال : "ثم زاكُسى داربي، ثم زاهن كُزونك دم، ثم زابي كي كيم، ثم زانتناسني، ثم زابير فلك رحمه الله تعالى ثم زايابسي، ثم زادوُر، ثم زازنك بار، ثم زابدا، ثم سن الأول على كلن، . . . سلمن نار، . . . ثم سن إبراهيم كَبي، ثم سن عثمان كنف، ثم سنّ باركي انكبي، ثم سنّ موسى، ثم سن بكر زنك، ثم سن بكردل بُيُنب، ثم سن ماركري، ثم سنّ محمد داع، ثم سنّ محمد كوكيا، ثم سنّ محمد فار، ثم سنّ كربيف، ثم سن مار في كُل جُم، ثم سن مازاركن، ثم سن مارارندن، ثم سن سليمن دام، ثم سنّ على سن بار اسمه بكر داع، ثم بعده أسكيا محمد"[1].

وأورد صاحب زهور البساتين، وعبد الرحمن السعدي معلومات عن خروج زاء الأيمن، من اليمن بمعية إخوته، وأنهم وصلوا أرض مدينة كوكيا، بأرض سغي، وأنهم تعرضوا إلى حالة من الفقر، والبؤس، وشظف العيش، لدرجة أن أجسادهم لايغطيها إلا طرف من الجلد، وأنهم نزلوا عند أهالي المدينة الذين سألوهم عن مواطنهم، وأن زاء أجابهم بأنهم من اليمن، وأن أهل المدينة بقوا لايقولون إلا زاء الأيمن عوضاً عن اليمن، لثقل نطقها على لسانهم[2].

وعندما استقر زاء الأيمن بأرض كوكيا، وجدهم على الوثنية، يعبدون سمكة تطفو فوق ماء النهر، وفي أنفها حلقة، وتخرج لهم في أوقات معينة، فيجتمعون حولها للعبادة فتأمرهم وتنهاهم ! فيتفرقون على ذلك، ويمتثلون لأوامرها ويجتنبون نواهيها! .

وكان زاء يحضر معهم، فايقن أنهم على ضلالة، فقتل السمكة، ومنذ ذلك التاريخ بايعوه على أن يكون ملكاً عليهم[3].

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 4.

(2) -موسى بن احمد السعدي مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق ص 4.

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 4.

لقد تلقب ملوك سنغاي الأوائل بعد وصولهم إلى أرض السودان الغربي بلقب سن[1].

أما ما ذهب إليه المؤرخان، بخصوص مجئ زاء الأيمن، وشقيقه من اليمن، فيغلب على المعلومة، طابع الخيال أكثر من الحقيقة، وخاصة أنهما استقيا تلك المعلومات، من أفواه الناس بالتواتر، وأن الفترة بعيدة عنهما بحوالي خمسة قرون، ولذلك لابد أن تُخالطها الزيادة والنقصان، وهذه الرواية لاتؤخذ كحقيقة؛ وخاصة أن فيها ما يبرهن على شطحات الخيال، مثل السمكة التي كانوا يعبدونها. . . . إلخ، وإضافة لذلك كيف لرجلين أن يخرجا من اليمن، ويقطعا هذه المسافات الشاسعة لوحدهما وجسدهما عاريان.

فمن المؤكد أنهما خرجا من اليمن، في أعداد هائلة، من أبناء جلدتهم، واستقر بهم المقام، بأرض السودان الغربي، وأن زعامة الركب كانت لهما.

أما عن وصول زا للحكم في السودان الغربي فلم يكن لقتله السمكة، وإنما لمجيئه من بيئة متحضرة وحمله معه المؤثرات الحضارية من تلك البيئة وتوظيفه لها.

وبالنسبة إلى قصة السمكة.. فإننا نستخلص منها الآتي :

1 - الهجرات العربية من اليمن إلى منطقة غرب أفريقيا.

2 - قيادات وملوك السودان الغربي من أصول عربية مثل زاء الأيمن وغيره.

3 - العقلية السودانية المتخلفة، والتي تهيمن عليها الخرافة.

4 - العقلية العربية المتطورة التي لاتؤمن بالخرافات.

5 - الديانات التي كان عليها أهالي المنطقة مثل الوثنية وغيرها.

6 - الثروة السمكية التي كانت تنعم بها البلاد.

---

(1) -سن : هو لقب له عدة مدلولات، من بينها: السير على الطريق أو على النهج أو حماية السنة إلخ ويقولون مثلا، سن باركي أي الملك.

مراحل تكوينها :

المرحلة الاولى :

بدأت المرحلة الهامة، في تاريخ سنغاي، خلال منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حين اعتنق ملوكها الإسلام، وبدأ يتسرب بين سكانها، وقد تم ذلك قبل مجيء المرابطين، وفي سنة 401هـ/ 1010م استولت على جاو بمؤازرة العرب المغاربة فى كوكيا[1].

لقد انتهت المرحلة الأولى في حياة هذه الدولة مع ظهور وسيطرة مملكة مالي الإسلامية على جميع المدن، الواقعة على نهر النيجر، ومن بينها مدينة جاو، ولكن أمراء سنغاي ظلوا يحتفظون بطموحهم، كما كانت شعوبهم تمنحهم المحبة والولاء. وتعاقب على حكم سنغاي، أكثر من أربعين أميراً، كان حكمهم اسمياً، ولم ينلهم أي تعسف، أو اضطهاد، من ملوك مالي؛ لأنهم كانوا يدينون بالإسلام، ولأن تجار سنغاي كانوا قادة التجار، بفضل امتيازات سوقي جاو وكوكيا، اللذين ذاعت شهرتهما في تلك الفترة ببيع العبيد، مقابل المصنوعات، الوافدة عليهما من البحر الأبيض المتوسط[2].

خضعت سنغاي للسيطرة المالية، في عهد منسا علي 653- 669هـ/ 1255-1270م، باستثناء العاصمة جاو، التي امتنعت على جيوشه، وأخذ منسا علي ولدى ملك سنغاي زايابسى · وهما علي كولن وسلمن نار، كرهائن ليضمن ولاءه وانقياده لطاعته، هذا وقد أورد السعدي، بأن عادة ملوك السودان استخدام أولاد الملوك الذين في طاعتهم، ومنهم من يرجع بعد الخدمة إلى بلاده، ومنهم من يستمر فيها إلى أن يفارق الدنيا[2].

---

(1) بازل دفدسن المرجع السابق ص 157.

(2)- Grand larousse Incyclopidi 1962-p504 .

(3) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 108، وعبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 5·

أما عن علي كولن وسلمن نار، فهما أبناء زاياسبي[1]، وقد أنجبهما من امرأتين شقيقتين، حيث إن أم علي كولن، تدعى (أما) وهي أكبر أخواتها، وقد استمر زواجهما، لفترة من الزمن، دون أن تنجب له ولداً، ولذلك طلبت من زوجها أن يتزوج أختها، على عادتهم لعله يجد منها عقباً ؛ فتزوجها وشاءت قدرة الله أن تحمل زوجته بولدين ذكرين. وعند الولادة طرح المولودان على التراب في بيت مظلم، دون غسل إلا في الغد، وهي عادة عندهم في المولود بالليل، فابتدأ بغسل علي كولن، ولذلك اعتبر الأكبر ثم غُسل سلمن نار فكان الأصغر، فلما بلغا مبلغ الاستخدام، أخذهما سلطان ملى، لأن أباهما تحت طاعته حينئذ إلى ذلك للخدمة على عادتهم، وتلك العادة جارية عندهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

دبر الاثنان فكرة الفرار، من قبضة سلاطين مالي، فعلي كولن كان يغيب في بعض الأحيان لطلب المنفعة، ثم بعد ذلك يرجع، وقد عرف عنه أنه لبيب عاقل فطن، كيس، وأخذ يزيد في الغيبة، إلى أن عرف دروب سنغاي، فأضمر الخلاف والهروب إلى بلده، واستعد لذلك بما يكفي من المؤن والأسلحة، وأطلع أخاه على السر، وأخذا جواديهما وتوجها إلى سنغاي، وعندما فطن بهما صاحب ملى، أرسل في طلبهما رجالاً ليقتلوهما، إلا أن الأخوين استطاعا النجاة بجلديهما، من قبضة الرجال واللحاق ببلدهما. وقد تولى علي كلن أمر سنغاي، إلى أن توفى فخلفه أخوه سلمن نار[2]، إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً، فعندما تولى ساكوره أمر مملكة مالي الإسلامية 684-700هـ / 1285-1300م، قاد جيشه لإعادة السيطرة على سنغاي، وقد استطاع الاستيلاء على عاصمتها جاو[3]. وقد توالت الحملات بعد ذلك على سنغاي، ففي عهد

(1) - زاياسبى أصل اللفظ سلمان فتغير لأجل عجمة لسانهم.

(2) - موسى بن أحمد السعدي مخطوط ورقة 109-110.

(3) Rouch, J. Les Songhay, Paris, 1954, p-8, levtzion, N. op. cit. P : 137 -

منسا موسى، أرسل حملة، وسيطرت على العاصمة، وقد زار جاو واستقبله ملك سنغاي، وقدم له فروض الولاء والطاعة وبنى مسجداً[1].

وفي فترة منسا موسى، عادت سنغاي إلى حاضرة مالي، وأرجع الأخوين[2] كرهائن، وأحكمت الرقابة عليهما، فهدأت الأمور، وانتظمت سنغاي في دفع الجزية لمالي، الأمر الذي جعل عبد الرحمن السعدي، يعتبر أن الملك منسا موسى هو أول من ملك سنغاي، وفي ذلك يقول : "هو أول من ملك سنغي من سلاطين مالي . . . ودخل أهل سنغي في طاعته بعد جوازه إلى الحج"[3].

من هنا ندرك أن سنغاي بقيت لفترة من الزمن بين محكومة ومستقلة تارة تخرج عن نطاق مملكة مالي وتارة أخرى تابعة لها، ويحكم هذا الأمر قوة وضعف حكام مملكة مالي الإسلامية.

والسؤال الذي يطرح هو : لماذا كان التركيز على العاصمة في اجتياح سنغاي؟،

للإجابة عن هذا السؤال حسب وجهة نظرننا، نورد الآتي :

نظراً لأن العاصمة تمثل ثقلاً سياسياً، واقتصادياً، واجتماعياً، فهي التي تمثل قلعة المواجهة، وبها الزعماء، وأصحاب رؤوس الأموال، وبذلك كان التركيز عليها أكثر من غيرها.

بوفاة منسا موسى عام738هـ/ 1337م، وحدوث اضطربات بالمملكة،

---

(1) - عبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 7، وابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 200

(2) - يلاحظ أن بعض المراجع قد خلطت بين استيلاء مالي على سنغاي في عهد منسا علي وبين الاستيلاء عليها في فترة منسا موسى، واعتبرت أن علي كولن وسلمن نار هما من رهائن منسا موسى، انظر على سبيل المثال إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق ص 106، وهو يتعارض مع ما ذكره المرجع نفسه، ص 64-66، انظر أيضًا بوفيل، المرجع السابق، ص 89.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 7.

تنفست سنغاي الصعداء، وأخذت تشق عصا الطاعة على سلاطين مالي، بل تجرأت على مهاجمة الحدود الشرقية للمملكة والسيطرة عليها؛ الأمر الذي أجبر ماري جاطة، وزير الملك المالي موسى الثاني عام 776-789هـ/ 1374 -1387م، على تجريد حملة عسكرية لإسقاط جاو، إلا أن الحملة باءت بالفشل، ولم تحقق أغراضها، ومنذ ذلك التاريخ، تخلصت سنغاي نهائياً من سيطرة مالي[1].

أما المرحلة الثانية بدأت عندما صارت سنغاي، تحت زعامة سلالة سن علي كلن، في بناء قوتها العسكرية، وفي حوالي 823هـ/ 1420م، تمكن سن محمد داع، وهو السلطان العاشر في سلسلة ملوك أسرة سن، من أن يخرب معظم بلاد مالي، وخاصة عاصمتها، وأن يأسر الكثير من عبيدها[2]، وقد جاء بعد سن محمد داع، سن محمد لوكيا، وسن محمد فار، وازدهرت في عهد سن سليمان دام الذي توفي سنة 869هـ/ 1464م والذي ضم إلى سنغاي بلاد ميم، وهي من أقاليم مالي الشمالية[3]. وتولى بعده ابنه سني علي، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للإمبراطورية.

المرحلة الثالثة مرحلة تولى سني علي مقاليد الامور :

هو سني علي بن سليمان دام، ينتسب إلى أسرة ضياء، التي نزحت من طرابلس الغرب ، واستقرت في تلك الأماكن، وهو أب لابن يدعى أبو بكر داعو، وعدد من البنات[4].

---

(1) ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 6 ، ص200. Levtsion : op -cit - p -137

(2) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ، ورقة 108 ، ومحمود كعت، المصدر السابق ، ص 42، وعبد الرحمن السعدى، المصدرالسابق، ص 4.

(3) Hunwick J.O/: Songhay, Borno and Hausa land In Sixteen century, His- - tory

J.F.A, VOI.I, Great Britain 1976. p-287 (3) of Africa, ed. Ajayi,

(4) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 72، وزباديه مملكة سنغاي ، المرجع السابق، ص 26، ونعيم قداح أفريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص 67.

Trimngham J.s O P, cit : 93.

تربى سني على في بيت أخواله، في بلدة فار، بعد أن فارق والده أمه، وقد اهتمت به أمه وأخواله، ورجوا فيه الخير، فكانت له شخصية مستقلة منذ نعومة أظافره، تعلم الفروسية، وفنون الحرب، وظهرت شخصيته القيادية منذ صباه، وتفوق على أقرانه، وهذا ليس غريباً عنه، لأنه من بيت توارث الحكم، وله وزنه في المجتمع السوداني.

تولى سني علي أمر البلاد عام 869هـ/ 1464م[1]، عقب وفاة والده، وكانت أول أعماله بعد توليه، التخلص من خصومه، ثم اتجه نحو البلاد، وما كانت تعانيه من عدم التخطيط المحكم، والقدرة على القيادة، فانتزعها من مخالب مملكة مالي الإسلامية، وأخذ يعمل منذ أن استلم أمرها، على تكوينها والصعود بها إلى مصاف الإمبراطوريات المتقدمة، والمترامية الأطراف، وتحويلها من دولة صغيرة قابعة تحت سيطرة الآخرين إلى إمبراطورية عظيمة الاتساع، تسود منطقة شاسعة، من غرب أفريقيا.

ولذلك، اتخذ لنفسه فلسفة معينة في تسيير نظام الحكم، اتسمت بالجدية والصرامة والحزم، جرت عليه هذه السياسة السخط والتذمر من قبل جل شخصيات المنطقة وعلمائها، الذين لم يترك لهم مجالاً للهيمنة على سياسة الدولة، مثلما كان في السابق. ومن هذا المنطلق ناصبوه العداء. وشنوا عليه حرباً دعائية محاولة منهم تشويه شخصيته القيادية الفذة، ونعتوه بعدة نعوت، منها الظالم والفاسق والكافر والمتسلط، والقاتل... إلخ

وقد وصفه، السعدي قائلا : "كان ذا قوة عظيمة ومتانة جسيمة ظالما فاسقاً متعدياً متسلطاً سفاكاً للدماء قتل من الخلق مالا يحصيه إلا الله تعالى، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال"[2].

---

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 110 , وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 65 ومحمود كعت، المصدر السابق ص44.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 64.

وفي المقابل امتدحه عدد من المؤرخين القدامى من أمثال حسن الوزان، الذي قال في حقه "سني علي كان رجلاً عظيماً"[1].

وقبل أن نعلق على ماوصفت به هذه الشخصية، من صفات ذميمة، نتتبع ما قام به من تنظيمات إدارية وفتوحات، فهي الكفيلة بالرد على تلك الاتهامات.

تنظيماته الإدارية وفتوحاته :

بمجرد تولى سني علي مقاليد الأمور، أخذ على عاتقه توسيع رقعة بلاده، بتكوين جيش قوي، من مختلف شرائح المجتمع السوداني، وأمر عليه قواداً من ذوي الكفاءة العالية في القيادة، كان على رأسهم ابنه أبو بكر داعو، وابن خالته أبو بكر التوري (أسكيا الحاج محمد)، كما كان من بين قواده المختار محمد ابن نض[2].

ومن بين التنظيمات التي اتخذها سني علي، لبناء هيكلية إمبراطوريته الناشئة، إنشاء محكمة كان يحكم فيها على الخارجين عن طاعته، وقد حكم فيها بالفعل على عدد من أهل بلدة باغرم بالقتل[3].

ومن بين الدواوين التي أنشأها : بيت المال، الذي جعل عليه أميناً وحارساً، مهمتهما المحافظة عليه، وكان الأمين يدعى الخطيب عمر، أما القضاء فقلد أموره إلى القاضي حبيب[4]. وأما وظيفة الكاتب والقارئ فأسندها إلى إبراهيم الخضر، الذي كانت مهمته قراءة الرسائل الواردة من فاس والرد عليها[5].

---

(1) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 162.

(2) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في اخبار السودان، مخطوطة ، ورقة 11، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 70-71-72.

(3) - مجهول، تراجم علماء باغرام، مخطوطة، دار معمر القذافي لجمع التراث العربي الأفريقي بمدينة جاو، دون تصنيف ، ورقة 30.

(4) – عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 73.

(5) – نفسه، ص68.

مما سبق نستنتج ما يلي :

1 - المكانة العـالية التي تبـوأتها فاس خاصة، والمغرب الأقصى عامة عند سني علي.

2 - المكانة العلمية التي عرف بها المغرب الأقصى بين أقرانه مـن الشمال الأفريقي.

3 - الثقة والأمانة التي اتصف بها أبناء المغرب الأقصى؛ حتى اتخذهم ملوك السودان الغربي كُتاباً لهم. وكذلك سيادة الخط المغربي في الكتابة وهكذا، بعد أن رتب الملك سني علي أمور إمبراطوريته، بدأ بفتح المدن التي كانت خارج نطاق الإمبراطورية، فكانت أول غزواته نحو مدينة جني.

وقد وردت عدّة أقوال، في الطريقة والفترة التي مكثها سني علي محاصراً لها.

أورد صاحب الجواهر الحسان أن سني علي حاصر المدينة بجيشه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأنه اجتاحها، في فترة حكم السلطان آدم سلطان جني[1]، ثم جاء في موضع آخر، وذكر أن الملك سني علي حاصر مدينة جني أربع سنين دون أن يقْدر عليها في شيء، ولكنه عاد ودخلها نتيجة للخلافات الداخلية التي حدثت بين جيشها ومواطنيها، وحكامها. ومكث جيشه فيها خمساً وعشرين سنة، أما هو فقد استقر بها ثلاثة عشر شهراً[2].

وورد في مخطوطة نبذة من تاريخ جني أن سنغاي امتلكت جني، ووقعت حـرب بينهـا، وبين قبيلـة مـرك، وانتصرت سنغـاي، وكانت مرك على الإسلام، وترك لها سني علي تسيير أمر البلاد، بل قدم لها المساعدة، في بناء المساجد، وقد بقيت جني تابعة لسنغاي مائتي سنة[3].

(1) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 11.

(2) - نفسه والورقة.

(3) - مجهول نبذة من تاريخ جني، مخطوط، المكتبة الوطنية نيجيريا، 1120، ورقة 3.

وذكر عبد الرحمن السعدي نقلاً عن "الذيل" لأحمد بابا أن سني علي دخل مدينة جني، واستولى عليها، وأقام بها سنة وشهراً [1].

وأورد السعدي رأياً آخر عن سقوط جني، مفاده أن حصار جني، استمر سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وهو في ذلك يتفق مع صاحب "الجواهر الحسان"، ولكنه أورد في موضع آخر، وأفاد نقلاً عن ولي الله الفقيه محمد عريان الراس، أن سني علي حاصر المدينة أربع سنين، فما نال من أهلها نيلاً[2].

وفي موضع آخر استطرد قائلاً : دون تحديد مصدر الرواية : "ورأيت في خط بعض المعتبرين من الطلبة أن سني علي أقام بجني عاماً واحداً وشهراً واحداً، ولم يبين من أنه من هذه المرة، أو من مرة أخرى"[3].

وأورد كعت بأن سني علي خرج لمحاربة (جنكي) بمدينة جني فوصل إلى قرية (شيطي)[4]، وقبل وصوله إلى جني، تقابل مع (كُرن) أحد أتباع جنكي، وكان النصر حليف سني علي. وقد واصل سني سيره في تجاه خصمه جنكي، ، وعند وصوله بلدة (بكُونا)، اعترضه (تُنكي)، أحد أتباع جنكي بجيش جرار، غير أن سني علي، انتصر عليه، ووصل إلى جني، وتقابل مع حاكم المدينة جنكي، وكان حاكمها في بداية الأمر لايقيم أهمية كبيرة لسني علي، ولكن بعد ما تبينت له خطورته، جمع له جيشاً كبيراً، وعزز تحصينات مدينته، ثم تقاتلا ستة أشهر، وكان النصر حليفاً لسني علي، لقوة آلياته، وضخامة إمكاناته؛ إذ بلغ عدد سفنه أربعمائة ؛ ودخل سني علي قصر السلطان، ولكنه لم يرقه، فانتقل إلى دار لجنكي بالقرب من الجامع الكبير[5].

وأمام هذه الآراء المختلفة عن فتح مدينة جني، والمدة التي مكثها سني علي

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 64.

(2) - نفسه ص 15.

(3) - نفسه والصفحة.

(4) - لاتبعد كثيراً عن مدينة جني تعرف اليوم بشيطا.

(5) - محمود كعت، المصدر السابق ص 52.

لفتحها. . . فإن الباحث له رأي مغاير لتلك الآراء جميعها:

1 - لايعقل أن يستمر قائد مثل سني علي، غائباً عن أمور إمبراطوريته التي انتزعها بالقوة في حصار مدينة، مثل جني سبع سنوات، أو حتى سنة أو نصفها، فمدينة جني ليست بالمدينة الكبيرة، التي تحتاج إلى مثل هذا الجهد، فسني علي قادر على فتحها في أيام قليلة، نظراً لأن جيشه في قمة عنفوانه، وكذلك لعبقريته القيادية.

2 - الجيش الذي جرده لفتح المدينة، يحتاج إلى تكاليف عالية، وبذلك إذا استمر هذه المدة الطويلة، لايستطيع تلبية متطلبات الجند، إضافة إلى ذلك من جانب التكتيك العسكري، لايعقل أن يترك قائد فذ، مثل سني علي جيشه طوال هذه المدة، في حصار مدينة، وأعين الأعداء متربصة به من كل جانب. وكذلك من الجانب التعبوي، لايترك القائد الناجح جيشه، في مكان واحد، مدة طويلة؛ لأن طول المكوث يثير عند الجندي روح التمرد، وإثارة القلاقل، وهي أمور قد تغيب عن القادة الفاشلين.

ومن وجهة نظرنا. . فإن سني علي فتح المدينة في مدة قصيرة، وتزوج أم جنكي، وترك مجموعة من الجند في جني، وتوجه إلى مدينة أخرى لفتحها.

وفي سياق الحديث عن فتح سنى علي لمدينة جني، نطرح السؤال الآتي :

لماذا ركزت جلّ المصادر السودانية من مخطوط ومطبوع على قصة فتح الملك سني علي لمدينة جني؟.

نعتقد أن هناك جانبين مهمين لمدينة جني، لهما وقعهما عند أبناء السودان الغربي : **الجانب الروحي**، باعتبار مدينة جني من أقدم مدن السودان الغربي، حيث كان تأسيسها في القرن الثاني الهجرى، 623م وهي مدينة العلم، والصلاح، وقد ذكر أن بها أربعة آلاف ومائتي عالم، وعدداً من المساجد، فهي إذًا لها هالة روحية تميزها عن غيرها.

والجانب الاقتصادي: ويرجع إلى تمتع المدينة بمكانة اقتصادية، فهي ملتقى طرق القوافل، وسوق لأهم معدنين في السودان الغربي: الذهب والملح. وقد ذكر السعدي بأن لمدينة جنى سوقاً عظيماً يلتقى فيه تجار الملح من مناجم تغازا، وتجار الذهب من مناجم بيط[1].

لقد واصل الملك سني علي فتوحاته، لتوسيع رقعة إمبراطوريته، ففتح جنج وير، وأراضي صنهاجة، ونونو، وكان أميرهم في تلك الفترة الملكة (بيكن كاب).

ودخل تنبكت عام 873 هـ/ 1468م مابين رابع وخامس الفرد، أي بعد توليه بأربع أو خمس سنوات، وسيطر عليها وعلى الجبال كلها، باستثناء دم التي لم تدن له، إضافة إلى ذلك فتح أراضي كنت، واتجه صوب أرض (بَرَكُ)، فلم يستطع دخولها، كما استولى على قبيلة سنقير من قبائل الفلان، وسبى رجالهم ونساهم، وكانت آخر غزواته غزوة (كُرم)، وحارب فيها الزغرانيين، والفلانيين، ودفع فيها حياته[2].

أورد صاحب مخطوطة "الحقوق الاجتماعية للعبيد" عن فتوحات سني علي قوله" وتغلب على مابين توات ومل ووغد وأكدز ودند، وهو سني علي الذي حفر راس الماء"[3].

سني علي يختفى من مسرح الأحداث :

وردت وفاة سني علي في عدد من المصادر بروايات مختلفة:

فقد ذكر صاحب " السعادة الأبدية "، أن الملك سني علي، قد توفي أثناء

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(2) - أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 23، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص71.

(3) - سيدي مولاي محمد الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط مكتبة الباحث، دون تصنيف ، ورقة 9.

رجوعه من موقعه كرم، بعد ماحارب الزغرانيين، والفلانيين، وبالتحديد في موضع يسمى (كُني)[1]، في خامس عشر من المحرم فاتح 898 هـ/ 1492م، بسبب انطلاق سيل عليه ثم شق ابناءه بطنه، وأخرجوا أحشاءه وملأوها عسلا، لئلا ينتن[2].

وأورد كعت معلومات عن وفاته، تخالف الرواية السابقة، مفادها أن سني علي مات في بلدة (قن)، من بلد الحجر، بداء الفجاة، وعندما تحقق جنده، من موته دفنوه هناك؛ ولم يعلم أحد من أهالي تلك البلدة بموته[3].

وقد اختلف عدد من المؤرخين في تاريخ وفاته، فمنهم من قال إن موته كان في شهر المحرم، فاتح السنة الثامنة والتسعين بعد ثمانماية 898هـ/ 1492م[4]، ومنهم من قال إن موته كان سنة 899هـ/ 1493م[5]، بعد أن مكث في الحكم سبعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر، وخمسة عشر يومًا[6].

أما عن وجهة نظرنا الخاصة.. فإننا نستبعد كل هذه الروايات السابقة، ونرى أن ظروف وفاة سني علي، لم تكن طبيعية، وإنما كانت نتيجة لمؤامرة حاك خيوطها ونفذها قائده محمد توري (أسكيا الحاج محمد)، بالتعاون مع أخيه (عمر كمزاغ)، عند وصوله كني، ويؤيد هذا الرأي الممارسات الخاطئة، والتطلع المستمر لأسكيا محمد إلى الإطاحة بسني علي، فما حكم سني علي على أسكيا

---

(1) كني مدينة تقع اليوم ضمن نطاق جمهورية النيجر، وتقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة نيامي، وتبعد عنها بحوالي أربعمائة وخمسين كيلو متراً.

(2) أحمد بابير الأروانى، السعادة الأبدية مخطوط، ورقة 12، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 110-111.

(3) أحمد بابير الأروانى، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 12.

(4) احمد بابير الأروانى، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 12 ، ومحمود كعت ، المصدر السابق، ص52.

(5) مجهول ، درر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ، مكتبة الحاج عبد القادر التبين، دون تصنيف ، بجاو، ورقة 111.

(6) محمود كعت، المصدر السابق، ص 52.

محمد أكثر من مرة بالإعدام إلا دليل على كبر الجرم؟ وهي الخيانة العظمى، فلا يصدر حكم بالإعدام، إلا على من يتآمر ضد أمن الدولة. أما عن احتفاظه به قائداً لجيشه، فربما يعود لكفاءة محمد توري، وحرص سني علي على البر بصلة الرحم.

وتؤيد وجهة نظرنا هذه أيضاً محاولة، محمد توري تشويه شخصية سني علي، بعد موته وتسخيره (قلم المغيلى)، لإصدار فتوى، مفادها تبرير ما أقدم عليه من اغتيال لسني علي ووصفه بالعمل الجهادي، ومن العبارات التي وصف بها محمد بن عبد الكريم المغيلي الملك سني علي في هذا : الصدد العبارة الآتية:

"إن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره ،لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، فجهاد الأمير أسكيا فيهم، وأخذه السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه "[1].

ومما يؤكد أن فتوى المغيلي، ضد سني علي، لم تكن نابعة من قناعة منه، وإنما كانت بضغط من أسكيا محمد مخاطبته له قائلاً : "وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن ذكر تردده من حال سني علي على الكفر بلا شك، فإن كان الأمر، كما ذكرتم فهو كافر"[2].

من هنا ندرك أن الحكم الذي أصدره المغيلي، في حق سني علي، باطل، لأنه اعتمد فيه على طرف واحد غير محايد، وعبارته "وإن ثبت عليهم" تؤكد عدم تحققه من الفعل .

ويبقى السؤال مطروحاً:

---

(1)- محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق عبد القادر زبادية، الجزائر العاصمة، دون تاريخ، ص 40.

(2)- نفسه والصفحة.

لماذا ينزلق عالم مثل المغيلي، يخشى الله هذا المنزلق، ويسير في ركب أسكيا محمد لتحقيق أغراضه؟ وهو يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من كَفَّرَ مسلماً فقد كَفَرَ" .

كمحاولة للإجابة عن هذا السؤال، نورد الآتي :

1 - على الرغم من أن المغيلي عالم متبحر، إلا أنه من محبي التقرب إلى أعتاب الحكام، ومما يؤكد ذلك قول أسكيا محمد له إن علماء بلاده لايفقهون من العربية إلا القليل-وهذا الكلام مردود.[1] لأن بلاده مليئة بالعلماء المتبحرين في اللغة العربية، مثل والد أحمد بابا التنبكتي، وأحمد بابا وغيرهما.

2 - عرف المغيلي بعدائه المفرط لليهود، وخاصة بعد أن قتلوا ابنه في مدينة توات، ولهذا تقرب من أسكيا الحاج محمد حتى ينصره عليهم، وفعلاً تعاطف معه أسكيا، وأخذ له بثأره.

وكان المغيلي على علاقة وطيدة بأسكيا، حتى قبل مقتل يهود توات لابنه[2].

وإذا كان سني علي فاسقاً ظالماً قاتلاً، فكيف يسمح أسكيا محمد أن يكون على رأس جيشه، الذي ينفذ تعليمات سني علي مدة سبع وعشرين سنة، وأسكيا محمد الرجل الثاني في الإمبراطورية، إذًا فإن الاثنين مشتركان في الأفعال الذميمة.

ومهما قيل عن تصرفات سني علي المتشددة والقوية، فإن ماذكر حول التشكيك في إسلامه يحتاج إلى إعادة النظر، لأنه لم يثبت أحد من المتشككين بالدليل القاطع صحة ذلك، وبالعكس، فإن عبد الرحمن السعدي، أفاد بميل سني علي لبعض العلماء، وخاصة المأمون بن عم قاضي تنبكت حبيب[3]، إضافة

---

(1) - محمد بن عبد الكريم المغيلي، اجوبة الاسكيا، المصدر السابق ص 22 .

(2) -نفسه والصفحه.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 66.

إلى ذلك أرسل إلى علماء تنبكت جواري في شكل هدايا، بعد غزوه لقبيلة فولاي الوثنية[1].

كما خصص سني علي مساحات، لأداء الصلاة في شهر رمضان المبارك[2].

وإضافة إلى ذلك هناك مزاعم أخرى لعدد من مؤرخي السودان الغربي حول شخصية سني علي، منها التي أوردها محمود كعت في قوله: " وهو سلطان جبار قاسي القلب يأمر بإلقاء الطفل في المهراس، ويأمر أمه أن تدقه، وتدقه الأم وهو حي ويطعمه للخيول! . . . وهو ينطق الشهادة ! "[3] وأضاف المغيلي أن سني علي ينطق الشهادتين ، ويصلي على الرسول، ويصوم رمضان، ويتصدق على الفقراء عند المساجد[4].

نريد أن نطرح السؤال: هل يعقل أن تأكل الخيل اللحم؟

لم يثبت لا في القديم ولا الحديث أن سمعنا أن الخيل تأكل اللحم بصنفيه البشري وغير البشري.

وهل يعقل أن مسلماً ينطق بالشهادة، يفعل مثل هذه الأعمال الذميمة التي ليست من طبيعة البشر السوي؟.

لنطرح سؤالاً آخر :

مالذي جعل محمود كعت، يتحامل على الملك سني علي، وينعته بنعوت ذميمة؟ للإجابة عن هذا السؤال، نورد الآتي :

1 - محمود كعت كان معاصراً للملك سني علي، وكان عالما، ويبدو أنه لم يحظ برعايته، مما أوغل صدره فوجد الفرصة سانحة للتهجم عليه.

---

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ص 67.

(2) Elias-N-Saad, Social History of Timbuktu : The Role of Muslim Scholars and Notables 1400-1900. combridge, 1983, p : 11.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 43.

(4) - المغيلي، أسئلة الأسقيا، المصدر السابق، ص36 .

2 - تقربه من أسكيا محمد الذي بعثه رسولاً إلى خصومه.

3 - إنعام أسكيا محمد على محمود كعت، بمرافقته في رحلة الحج.

أما عبد الرحمن السعدي فقد استقى معلوماته ممن سبقه، دون أن يمحصها ولذلك انجرف في التيار نفسه.

وكلمة أخيرة نقولها، في حق الملك سني، أن الرجال العظام أمثال سني علي، الذي أسس إمبراطورية مترامية الأطراف، ومكث ثماني وعشرين سنة على صهوة جواده يفتح الأمصار، لابد أن ينعت بنعوت واهية من قبل أعدائه وحساده، ومن على شاكلتهم، لأن هذا الرجل ديدنه الحق، والجد والصرامة. والحق صعب على غير السائرين عليه .

المرحلة الرابعة فى تاريخ سنغاي، وتولي أسكيا محمد توري الحكم :

- الصراع على السلطة بين إبراهيم داعو بن سني علي وأسكيا محمد :

استلم شي بار أمر سنغاي بعد وفاة والده، وكان سني بار شخصية ضعيفة على الرغم من محاولة والده، توليته أرفع المناصب، في قيادة الجيش، محاولاً أن يخلق منه قائداً محارباً، إلا أنه لم يستفد من هذه التجربة، علي الرغم من طول مدتها، وبذلك كان أسكيا محمد على علم بضعف خصمه، لكونه من المقربين من سني علي، بل يعتبر الرجل الثاني في المملكة[1].

انتهز أسكيا محمد ضعف شخصية خصمه، وحرض الجند عليه، فانقسم الجيش إلى مجموعتين : مجموعة تناصر شي بار، وكان معه من كبار القواد شي دند وفار افُنب، الذي يعتبر من أشجع رجاله، ودرم كي سندى، وترتنكي، وبنكي وكركي، وجند كي وغيرهم، وكل قائد من هؤلاء القواد له جيش يقوده[2].

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوطة، ورقة 117.

(2)- محمود كعت، المصدر السابق، ص 53.

أما أسكيا محمد، فقد انضم إليه من القواد منسى كور، وبركي منسى كور فقط وأورد عبد الرحمن السعدي عن أسكيا محمد : "فلما بلغه ذلك الخبر، أضمر في نفسه الخلافة، واحتال في ذلك بأمور كثيرة، فلما فرغ من إبرام حبل تلك الحيل، توجه إليه فيمن كان معه من خواصه، وأغار عليه في البلد المذكور في ثاني ليلة من جمادى الأول في العام المذكور فانهزم جيشه، وولى هارباً حتى وصل قرية يقال لها انكع"[1].

وفي يوم 24 من جمادى الآخر، كان أول اصدام مسلح بينهما، انتصر فيه أسكيا محمد، وفر شي بار إلى بلدة زاغ، فبعث أسكيا له محمد رسوله يطلب منه التسليم، إلا أن هذا الأخير رفض كل رسله بمن فيهم آخرهم محمود كعت، الذي أغلظ له شي بار القول، وأخبره بأن الحل بينه وبين أسكيا محمد الحرب، وبذلك أخذ يجهز في نفسه، وأيقن أسكيا محمد، أن عملية الوساطة باءت بالفشل ؛ فجهز جيشه، وكان الحل العسكري آخر ورقة، لعب بها، واستمر ينتظر اثنين وخمسين يوماً.

وفي يوم الاثنين رابع وعشرين من جمادى الآخر، دارت بينهما معركة حامية الوطيس، انهزم على آثرها شي بار، وفر بنفسه إلى (اين)، واستقر بها إلى أن توفي عام 899 هـ/ 1493م . وكان المناصرون لشي بار أكثر من خصمه، واعتبروه هو الملك الشرعي، وأن ما أقدم عليه أسكيا محمد اغتصاب للحكم بغير وجه حق[2].

الأسكيا محمد الكبير يتولى عرش سنغاي 899 /935هـ /1493-1528م :

برزت أسرة الأساكي الجديدة، التي قفزت إلى حكم المملكة، بعد أن سقطت أسرة السني، التي استمر حكمها مدة تسعة قرون، في مدينة جاو؛ أما أسرة

---

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(2) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوطة ورقة 117، وأحمد بابير الأرواني السعادة الأبدية، مخطوطة، ورقة 12-13، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

الأساكي فدام حكمها لمملكة سنغاي، زهاء قرن من الزمن (899 إلى 1000هـ/ 1493-1591م).

وقد ورد اختلاف في اسم أسكيا الحاج محمد، فقد ذكرت رسالة موجهة إلى نوح بن الطاهر أن "أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التور ودعى الكوكوي داراً ومسكناً"[1].

كما أطلق كعت عليه أسكيا الحاج محمد بن التوردي أصلا الكوكوي داراً ومسكناً[2].

أما السعدي فقد أطلق عليه محمد بن أبي بكر الطوري وقيل السكنلي[3].

رغم الاختلافات الطفيفة في اللقب، إلا أنه يكاد أن يكون واحداً.

الانتماء العرقي لأسكيا الحاج محمد :

أورد صاحب مخطوطة نبذة من تاريخ جني أن أسكيا محمد، ينتسب إلى فوتي طوري، لأن والده من هناك، أما أمه فمن سنغي[4].

كما أورد المغيلي أنه من أصل سراكولي، قدم أجداده من الجنوب الموريتاني في الفترة، التي حدثت فيها اضطرابات مملكة غانا مع نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ونـزلت عائلته حول النيجر الأوسط، واختلطت مع قبيلة سنغاي :[5].

أما كعت.. فقد ذكر أنه من طور، وأمه كسى بنت كُركي بكر، وتنسب أمه إلى سبط جابر بن عبد الله الأنصاري[6].

(1) - نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوط يتحدث عن تاريخ أسقيا تاريخها ، مركز أبحاث النيجر، رقم 220 ورقة 1.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 16.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71.

(4) - مجهول، نبذة من تاريخ جني ، مخطوطة ، ورقة3 .

(5) - المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 10.

(6)- محمود كعت ، المصدر السابق، ص 59.

وذكر الوفراني : "أن آل أسكية أصلهم من صنهاجة، وملكوا كثيراً من بلاد السودان، وأول ملوكها الحاج محمد سكية"[1].

وأمام هذه الآراء فإني أميل إلى الرأي الأخير:

تولى أسكيا محمد أمر البلاد، في أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وكان من بين المناصرين له موسى الأموي، الذي يقال إنه كفله بعد وفاة والده، وعندما وصل أسكيا محمد إلى مرتبة كبار ضباط سني علي، كان هو المخطط له إلى أن انتهى به الأمر بانقلابه العسكري على ابن سني علي[2]. وقد ذكر الحاج محمد محمد المفتي قائلاً: " استطاع مولاي الأموي تطويع الأعناق إلى أسكيا محمد، عندما تولى زمام الملك"[3].

وحسب حد علمي أن هذه المعلومة جديدة في تاريخ سنغاي، وبالتحديد وجود مخطط ومستشار لأسكيا محمد، قبل توليه الحكم.

تلقبه بأسكيا وسيرته الذاتيه:

جاء لقب أسكيا بعد انهزام شي بار، علي يد أسكيا محمد، وتناهى الخبر إلى بنات سني علي بهزيمة شقيقهن أمام خصمه ؛ وقولهن أسكيا "اشكيا"، التي تعنى في لغة سنغي لاتكون إياه، أي لايكون ملك، وسماع أسكيا محمد بمقولتهن وإصراره على أن يكون هذه المقولة : "أشكيا"، لقباً له وللملوك سنغاي من بعده تحدياً لهن[4]، وبعد رجوعه من الحج، أصبح يعرف بأمير المؤمنين

(1) - محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الرباط: ط: 2 دون تاريخ، ص 89.

(2) - جلال الدين محمد بن الهماد ، كتاب نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، ، مكتبة الباحث، دون تصنيف، مخطوط ورقة 33.

(3) - الحاج محمد مرحبًا، التاريخ الخاص بالتواتر لممالك السودان الغربي، مخطوطة ورقة 37.

(4) - مجهول، رسالة موجهة إلى نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوطة مكتبة عبد القادر التبين، دون تصنيف، بأقدز ورقة 1، وموسى بن أحمد السعدي، مخطوطة، ورقة 111، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

أسكيا الحاج محمد، كما ورد عند أحمد بن بابا الأرواني بأسكي محمد[1].

أما عن سيرته الذاتيه فقد امتدحت جّل المصادر، التي تمكنت من الإطلاع عليها ـ بين مخطوط ومطبوع ـ أسكيا الحاج محمد.

وقد امتدحه نوح بن الطاهر بقوله: "هذا الخليفة العادل والسلطان الغالب المنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التورُ"[2]، ووصفه كعت بالإمام الصالح، والخليفة العادل، والسلطان الغالب المنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردي، أصلا الكوكوي داراً ومسكناً[3].

ونعته عبد الرحمن السعدي بالمنقذ، ومفرج الكروب، وميزه بإصلاح الأمور، كما أفرد له بابا طويلاً ووصفه فيه بأنه : "الأسعد الأرشد أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين الذي فرج الله به عن المسلمين الكروب، وأزال به عنهم البلاء والخطوب، واجتهد بإقامة أمور الإسلام، وإصلاح أمور الأنام وصاحب العلماء"[4].

عرف أسكيا محمد بمناقبة الجميلة، من حسن تدبير السياسة، والعطف والإحسان على المساكين ، والرفق بالرعية، وحبه للعلم وأهله، والتذلل للصالحين، وكثرة العطايا لهم، وكان ملتزماً بأداء الصلاة والنوافل. كما عرف عنه العقل والدهاء، والاهتمام بالرعية، وتقريب العلماء، من أمثال محمد ابن عبد الكريم المغيلي الذي أصبح مستشاره الأول، في الأمور الدينية والسياسية.

كما أقام ملة الإسلام، على أحسن وجه، وأصلح الجبهة الداخلية، بإطلاقه سراح عدد من المساجين منهم المختار بن محمد نقي، الذي يعتبر من كبار

(1) - أحمد بابير الأروانى، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 24.

(2) - مجهول، رسالة نوح بن الطاهر بن أبي بكر بن موسى، مخطوط، ورقة 3.

(3) - كعت ، المصدر السابق، ص 16.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 71-81، ومحمود كعت ، المصدر السابق، ص 59.

Lugard, L : Tropical : Dependency PP : 171-173.

العلماء، وإرجاع أخيه الأكبر عمر إلى سابق عمله[1].

كل هذه الإجراءات اتخذها؛ من أجل تهدئة الأجواء السياسية، حتى يتنسى له العمل دون أية مشاكل.

تطبيقه السياسة الدينيةوتنظيماته الإدارية :

كانت أول أعمال أسكيا الحاج محمد، لتنظيم دولته، إعادة بناء الجيش، لأنه عدته في السلم والحرب، وقد استخدم تكتيكًا عسكرياً متميزاً، حيث أدخل فرقًا من فرسان العرب المغاربة، ومن قبيلة الطوارق، وجعلها في سلاح المشاة، وأنشأ أسطولاً من سفن التموين[2].

وهذ التكتيك له مدلول بعيد المدى، وهو :

1 - تكوين جيش من مختلف العناصر، يظهر الوحدة الترابية وتقوية اللحمة.

2 - اختياره عناصر من قبيلة الطوارق، في سلاح المشاة اختيارًا، ينم عن إطلاع وخبرة ، من قبل أسكيا الحاج محمد، لأن الطوارق يمتازون عن غيرهم من قبائل وسكان الصحراء، بالخفة والرشاقة، وسرعة العدو، ودقة التصويب بالنشاب والرماح.

ومن بين التنظيمات: إنشاء نيابة للملك، في تندرم التي أسندها إلى أحد إخوته، وهو عمر كمزاغ. وقد وقع اختياره على تندرم، لموقعها الإستراتيجي.

كما استحدث إدارة لجباية الضرائب، في جاو، وجعل الدفع عيناً ؛ وأنشأ الدواوين، العسكرية والسياسية والإدراية، وحدد اختصاصاتها تحديداً دقيقاً، ثم أقام حكومات إقليمية، ونصب القضاة، وعين الشرطة[3].

---

(1) - كعت، المصدر السابق، ص ص 16-59 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

(2) - حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، القاهرة : 1962، ص 249.

(3) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان بجمع تاريخ السودان، مخطوط، ورقة 3.

كما قام بتنظيم البلاد، على المستوى الإقليمي، فألغى الطريقة القديمة، في توكيل رؤساء القبائل، مقابل الاحتفاظ بأولادهم كرهائن[1].

إضافة إلى ذلك اتخذ كاتباً يكتب له رسائله (والبراءة)[2]، يدعى علي بن عبد الله، وهو الذي أمره أن يكتب له براءة لخليفته[3].

ومن تنظيماته اتخاذ الخدام ، وإسناد وظيفة محددة لكل واحد منهم :

فرجل كان يبعثه للعلماء والصالحين، وقد بعث في رحلته للحج فقيه ألفا صالح جور، ليدعو له ربه، ويتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر العطش الذي أصابهم، ونستنتج من النص السابق أن المجتمع السوداني عرف النظام الطبقي.

ومن أعماله الإدارية تقسيم المملكة إلى عدة ولايات، تدين جمعيها بالولاء لجاو العاصمة، وقد أسند كل ولاية إلى وال، واختار الولاة، من بين أقرانه وعبيده المخلصين، وبقيت تلك السنة سائدة في تعيين الولاة واختيارهم، طيلة أيام خلفائه من الأساكي[4]، وهذه الولايات هي :

1 - ولاية كورما :

تقع إلى الغرب من نهر النيجر. كان وليها في بداية الأمر يقيم في جاو، ثم انتقل بعد ذلك إلى نند برماء، وهو يعتبر ممثل الحكومة في الغرب كله، ولذلك كانت له صفة الامتياز عن غيره من حكام الولايات.

2 - ولاية بالاما :

تقع على حدود بلاد الموسى، في الجنوب الغربي من مملكة سنغي. وعلى ما يبدو أن من أسباب إنشائها، على حدود مملكة الموسى، تلك الصراعات المستمرة

(1) نفسه والورقة ، زبادية ، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 34.

(2) البراءة هي أن يكتب الخليفة إلى من يأتي بعده بتنصيبه أمير المؤمنين من بعده.

(3) محمد كعت ، المصدر السابق ص 15.

(4) زباديه ، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 134.

بين المملكتين، منذ زمن مملكة مالي الإسلامية، وإلى مملكة سنغاي؛ لأنها كانت تشكل باستمرار خطورة، الأمر الذي جعل أسكيا محمد، يقيم ولاية على أطراف حدود الموسى.

3 - ولاية دندي :

تقع إلى الجنوب الغربي من جاو، وكانت قصبتها مدينة جوجيا، وحاكمها زمن أسكيا داوود، موسى سفنار، وعند موته آلت ممتلكاته إلى السلطان أسكيا داوود[1].

4 - ولاية بانجو اوبانكو :

تقع حول بحيرة ديبوبين جاو وتنبكت، وكانت لها مكانة خاصة، عند حكام سنغاي، لأنها تمثل مركزًا تجاريًّا هامًّا، فواليها الوحيد الذي يدخل حاضرة سنغاي بفرقته الخاصة من ضاربي الطنابير.

5 - ولاية هاربي ندا :

تقع على ضفة نهر النيجر، من الجهة اليمنى المواجهة للعاصمة جاو.

6 - ولاية نهر النيجر :

كان يشرف عليها قائد الأسطول ،وتسمى وظيفته إدارية كوي[2].

7 - ولاية فر :

كان حاكمها كسور بن موسى، وهو أحد أعوان أسكيا الحاج محمد[3].

---

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 166عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، الرياض : دار اللواء 1983، ص ص 74-75.

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 103، زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص 31-54، والشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، ص 70، وأمين إسبر، أفريقيا والعرب، بيروت : دار الحقائق 1980، ص 22.

(3) - محمود كعت ، المصدر السابق، ص 65.

8 - ولاية تنبكت:

تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف اليوم بمنحنى نهر النيجر، اشتهرت كمدينة علمية، ارتادها العلماء من الشمال الأفريقي، وأنجبت علماءً أفذاذاً أمثال أحمد بابا التنبكتي، وخضعت تنبكت لأسكيا الحاج محمد، وعلق عليها آماله، وزادت من شهرة المملكة، احتضانها جامعة سنكري، التي كانت تضاهي الأزهر والزيتونة، وغيرهما من مراكز العلم، إضافة الى ذلك أنها كانت مركزاً تجارياً، يرتاده التجار من الشمال الأفريقي والشرق الغربي. قال عنها أحمد بابير الأرواني، وعبد الرحمن السعدي، مادنستها عبادة الأوثان ولاسجد على أديمها قط لغير الرحمن، مأوى العلماء والعابدين"[1].

9 - ولاية قندام:

تقع ولاية قندام إلى الغرب من مدينة تنبكت. وكانت ذات مركز اقتصادي وثقافي، كان قاضيها أيام أسكيا موسى القاضي بوجمة الطرابلسي[2].

10 - ولاية راس الماء :

تقع إلى الشمال الغربي من مدينة تنبكت، بحوالي ستمائة كم، وقد استحدثها أسكيا الحاج محمد، في بداية حكمه، وحفر فيها الآبار، فكثر الناس بها، وعمرت وأصبحت ولاية[3].

---

(1) - أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 10 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص 21، رولاند أوليفر وجون فيج، موجز تاريخ أفريقيا، ترجمة دولت وأحمد صادق، مراجعة محمد السيد غلاب، مطابع كوستا لوس وشركاه 1965م. ص 102.

(2) - على بوجمعة الطرابلسي، يبعث برسالة إلى أحمد بابا التنبكتي، مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 1760 ورقتين.

(3) - جلال الدين محمد بن الهماد، كتاب نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، مخطوطة، ورقة 9.

11 - ولاية أقدز-أكدز :

تأسست في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي على يدي قبائل الغوبيروا، وعرفت هذه المدينة صناعة الجلود، وعندما سيطرت عليها سنغاي، وارتادها تجار وعلماء من المغرب وليبيا.

وقد بنى بها كل من محمد الفزاني، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، في القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادي الخامس عشر الميلادي مسجدين مازالا قائمين إلى يومنا هذا[1]. وأخذت أقدز في الاضمحلال بعد انهيار مملكة سنغاي[2].

12 - ولاية جنى :

تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت، وتبعد عنها بحوالي سبعمائة كم، واختلف المؤرخون في تاريخ تأسيسها، فمنهم من أرجعها إلى 494هـ / 1100م[3]، ومنهم من رأى غير ذلك؛ إلا أن عبد الرحمن السعدي أورد أنها: "بدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني الهجري 623م". وكان أول بناء بها سورها وسداً لحفظ المياه، وبعض المباني، وكان أول ملوكها جنور، الذي ينتسب إلى قبيلة مرك، وبعد وفاته تولى أخوه بعده، ثم تولى بعد الملك كيكمبر، الذي أعلن إسلامه في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، واستمرت المدينة في حالة ازدهار، إلى أن دخلها الملك سني علي، ثم دخلها بعده أسكيا الحاج محمد، وكان لها وزنها في السودان الغربي[4].

---

(1) انظر الملف ص

(2) مجهول، تاريخ أكدز، مخطوطة، مركز أبحاث النيجر، رقم 120، ورقة 2، وزكاري مايكور بما ويوبي كادو يوبي جادو وآخرون، الحضارة الإسلامية في النيجر، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة-ايسيسكو الرباط: مطبعة اليت 1994 ص 57-58-59.

(3) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 220، حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص 217.

(4) مجهول، نبذة من تاريخ جني، مخطوطة، ورقة 2-3 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 35. انظر الملحق.

هذا عن الولايات، أما الأقاليم، فمنها :

1- إقليم غوار :

ويقع على أطراف مملكة البرنو، من جهة الغرب، وينقسم بدوره إلى سبعة أقاليم، يتكلم سكانها لهجة واحدة، وعلى كل إقليم أمير.

وكان لكل إقليم خاصية يختص بها، فأضيقها كاشنه، وأوسعها زكزل، وأجدبها غوبر وأبركها كسنوا، وطبيعة أرض هذه الأقاليم جبلية ورمال بها أودية وأشجار. يقطنها السودان من مماليك العرب المغاربة من أهل برنو، والفلانيين، والطوارق، وذكر موسى السعدي أن أصل سكان كاشنه، وكنو وزكزك، ودورونه وبرييم كلهم من ولد باو، الذي هو مملوك سلطان برنو.

ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة، لأن فترة برنو وفترة سنغاي تكاد أن تكونا متزامنتين ؛ فمن المستبعد أن يكون شخص واحد قد أنجب هذه الأعداد كلها.

أما أصل غوبر، فهم أحرار خرجوا من مصر، وهم بقايا القبط. وهذه الأقاليم السبعة استقرت بها آمنة بنت أمير زكزك، بعد أن غزتها، واستولت عليها قهراً، واستحوذت على خيراتها، ثم فتحت باقي الأقاليم ، ولهذا كانت زكزك أوسع الأقاليم؛ لأنها توسعت على حساب جيرانها[1].

وأورد موسى بن أحمد السعدي، في هذا المجال أنَّ : "الإقليم الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم وبنائهم بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب. . . إلخ"[2].

2 - إقليم باوش :

يأتي بعد إقليم غوار، ويعمره أجلاف السوادان، انتشر فيه الإسلام زمن سني علي ومن جاء بعده[3].

(1) موسى بن أحمد الرحمن السعدي، مخطوط، ورقة 131.

(2) نفسه ورقة 130.

(3) -نفسه، ورقة 132.

3 - إقليم اتاغر:

يقع بالقرب من الأقاليم السالفة الذكر، وهو إقليم واسع به مرسى للسفن، وأصل سكانه من إقليم زكزك، وصله الإسلام في زمن دولة مالي، وبهذا الإقليم عدة معادن منها الشب، وكدور، وسكو وكتو، وكردوف.

4 - إقليم كُرمزُف :

يشتمل هذا الإقليم على نحو عشرين قرية صغيرة سلطانها واحد، وهو سلطان كرمزف، وقد غزا كنوا وبرنوا، وبهذا الإقليم عدة معادن كالملح والذهب والكحل.

5 - إقليم كبير :

يقع إلى الشرق من جاو، وأصل سكانه من كشنه، وأبوهم كشناوى، وأمهم غوبرية هاجروا إليه بعد ضعف شوكة كب، وكان حاكم الأقاليم، يدعى يعقوب بن تب، غزا إقليم كب، واستولى على أغلب أراضيه، ثم زحف على كشنه، واستولى على بعضها ؛ وقد ضعفت شوكته، فزحف عليه حاكم غوبر المدعو (باباري)، فخرب دياره ونصب عليه ابنه علي كبير.

6 - إقليم كب :

يقع في دائرة ولاية أقدز، يقال : إن أصل سكانه من سنغي، لان أباهم منها، وأمهم كشناونية. وقد حكمهم في آخر أيامهم عبد فلاني، استولى على الإقليم. أما طبيعة هذا الإقليم فتغلب عليها الرمال.

7 - إقليم سكسو :

يقع إلى الجنوب الغربي مدينة سقو من العاصمة باماكو، ويبعد عنها بحوالي مائتين وعشرين كم وجزء من طبيعته جبلية، وأصل سكانه من السودان البنباره، ويمتهن سكانه التجارة، وخاصة تجارة العبيد، التي كانوا يلعبون فيها دور الوسيط

بين أفريقيا، والشمال الأفريقي، وأوربا حيث يقومون بغزو القبائل القاطنة خلف ديارهم، ويبيعونهم إلى التجار[1]. ويدين سكانه إلى اليوم بالوثنية[2].

8 - إقليم برغ :

وهو من ضمن نطاق ولاية جني، غزاه أسكيا الحاج محمد واستولى عليه. سكانه سودان، ويقال إنهم عبيد الفلان، الذين تركوهم وراء النور حين جاوزوه إلى المناطق الأخرى، وقد عرف عن هؤلاء السودان التجبر والتعامل بالسحر، ويمتاز إقليمهم بكثرة الأشجار، التي كانوا يصنعون منها السفن، ويصدرون جزءاً منها إلى باقي المناطق.

9 - إقليم غرم :

يلى إقليم برغ، ويمتاز بأنه أوسع من الإقليم السابق، كما أنه من ضمن ولاية بالاما، وتجاور مملكة موشى، وبه جبال، ورمال، وأشجار، ويمتهن جزء من أهله السرقة، والتعدي على التجار[3].

10 - إقليم كستينة :

يقع شرق الإقليم السابق، وتغلب عليه الطبيعة الجبلية،[4] كما توجد به السهول، وينقسم الإقليم من الداخل إلى عدة "كوانيين"[5]، ويمتهن أهله الزراعة حيث يزرعون الشعير والذرة، وقد غزاهم أحد ملوك سنغاي زمن الأسكيين، وفرض عليهم أداء الخراج إلى خزينة المملكة[6].

---

(1) مجهول، تاريخ أكدز، مخطوط، ورقة 2-3-4.

(2) زرته عام 1987، والتقيت بشيخ الإقليم .

(3) مجهول، تاريخ أقدز ، مخطوط، ورقة 2.

(4) موسى بن أحمد السعدي ، مخطوط ورقة 66 .

(5) بالكونيين عبارة عن مناطق صغيرة منخفضة.

(6) مارمول، كرنجال، أفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر وآخرين، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع 1984، ج 3، ص 303.

11 - إقليم تغاز :

يقع إلى الشمال من مدينة تنبكت، وهو مصدر ملح السودان الغربي، عملت كل الممالك التي قامت بالسودان الغربي على السيطرة عليه، وكانت آخرها مملكة سنغاي، وذلك لقيمته الاقتصادية. وقد حكمه محمد أكما خديم أسكيا داوود، الذي قتل في تغاز عام أربعة وستين وتسعمائة 964 هـ/ 1556م، بواسطة الفلالي الزبيري والد يعيش بن الفلالي، بإيعاز من مولاي محمد الشيخ الكبير سلطان مراكش، وقتل معه الطوارق، الذين يستخرجون ملح ظلي. وكان آخر من استغل ملحها المغاربة في أواخر دولة سنغاي[1].

12 - إقليم كياك :

يقع إلى الشرق من جاو، وهو إقليم واسع كان يحكمه أمير يدعى كيال فرن، يتبع لسنغاي، كان كثير الحروب مع جيرانه؛ نظراً لأنه أقوى منهم عدداً وعدة ؛ وكان له جيش قدر عدده بألفي فارس. ومن مدنه مدينة قديمة تعرف (بسائن دنب)، وأصل سكانها من جفنة، وهم بقايا من زمن كيمع. خربت عند انتهاء دولة كيمع، ثم أُعيد بناؤها زمن (زار)، وانتقل بعض سكانها إلى (كُساب)، وهم الذين يطلق عليهم (بكُسن)، وبعضهم انتقل إلى (زار) وقد حاربهم كيال فرن، وانتصر عليهم، ونهب ملكهم، وشتت شملهم، وكان أمراؤهم لايلبسون العمائم، ،ولايجلسون على الفرش، وإنما يجلسون على (القلابيش)[2]. أما ملوكهم فكانوا على درجة من التواضع، بحيث لاتستطيع أن تفرق بينهم وبين جلسائهم[3].

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 106.

(2) هي نوع من الحصر تصنع من نبات يشبه الديس، يكثر بالسودان الغربي، ينسجون منه هذا النوع من الحصر يعرف، لقلانيش.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 39، وإلى اليوم يعرف بهذا الاسم.

أما عن شخصية كيال فإنها عدوانية، ويحكى أن أحد ملوك سنغاي مر عليه، ورأى منه القوة والجبروت، فظن أنه بهذه القوة يريد تحطيم مملكته، ولذلك بدأ يتلطف إليه، ويرسل الهدايا، ليكسب وده، ويأمن جانبه.

وقد وقع خلاف ومشاجرة بين أكيال، ونائب سلطان سنغاي (كر من فار)، فاستنجد الأول بكنفار عمر علي كر من فار، الذي خرج إلى تأديب الأمير تنيض لاغتصابه لحق تاجر زغراني؛ وقد كان خروجه من تندرم، التي تبعد عن خصمه مسيرة شهر كامل، بجيش عرمرم فدمره وغنم منه الكثير، وكان ذلك عام ثامن عشر بعد تسعمائة 918هـ/1512م[1]

تقودنا هذه الأحداث إلى عدة مضامين، ومنها :

1 - التحالفات القبلية بين رؤس القبائل.

2 - خروج أمير مثل كنفار عمر بهذا الجيش الجرار؛ من أجل تثبيت حق تاجر زغراني ينم عن حبه للحق.

3 - تمرد وعدم رجوع بعض الأمراء، للسلطة المركزية، المتمثلة في سلطان مملكة سنغاي، يعود إلى ضعف السلطة، وعدم مقدرتها على الإمساك بزمام الأمور، ومايؤكد ذلك ما أورده كعت من أن كر من فار، السالف الذكر، كان يأخذ في (القرامات)[2]، على زنجيات الشريف الحسني على بن مولاي أحمد بن عبد الرحمن، صاحب مراكش، ويدعي أن أسكيا هو الذي أصدر له الأوامر بذلك، إلى أن اشتكى الشريف الحسني إلى القاضي العاقب على هذا التصرف، وعندما علم أسكيا الحاج محمد بهذا التصرف، قال : لاعلم لي بذلك، وبعث برسله إلى كر من فار وإخوته يعاتبهم[3].

---

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص ص 39-40.

(2) - القرمات : هي معونة من الشعير والقمح، كان يقدمها المستعمر إلى أبناء البلد، يقصد بها هنا ضريبة.

(3)-محمود كعت، المصدر السابق ص132 ، ص 133.

بعد أن خطا أسكيا الحاج محمد خطوات ثابتة في تنظيم المملكة، على المستوى الإقليمي، ركز مجهوداته من أجل إيجاد مراقبين ومفتشين للإشراف على العمل، وقد عهد بهذه الوظائف إلى رجال أكفاء، اختارهم من أقرب مساعديه، كما حدد لكل منهم اختصاصات عمله بكل دقة.

ومن هذه المناصب :

1 - تفتيش الضرائب العام، ويرأسه مفتش الضرائب، وله أعوان منتشرون في جميع أسواق البلاد، وعلى الحدود؛ حيث يهتم باستقبال القوافل القادمة للبلاد، من الشمال الأفريقي، أي من المغرب وتونس وليبيا ومصر، ويأخذون على البضائع رسوماً، وكانت وضيفة مفتش الضرائب الإدارية تسمى (موندي).

2 - وظيفة المشرف على الشؤون القبلية (كوري فاريما)، وهو الذي يذهب إلى رؤساء القبائل، ليعرف مشاكلهم، وكانت هذه الوظيفة موجودة عند الأتراك في الفترة نفسها.

3 - وظيفة المشرف على الغابات (ساوفاريما)، وهو المسؤول عن قطع الاخشاب، لبناء السفن، ومراقبة الصيادين.

4 - وظيفة حاكم عام العاصمة، وهو يتعامل مع الأهالي، وحل مشاكل المدينة، ومراقبة الأسواق، باعتبارها العاصمة، وتنفرد مدينة جاو بهذه الوظيفة، عن باقي المدن الأخرى، نظراً لأهميتها[1].

نتبين من الإصلاحات الإدارية التي أقامها الأسكيا الحاج محمد، قدرته على التنظيم المحكم، الأمر الذي جعله يحافظ على مملكة مترامية الأطراف، أشاد بها عدد من المؤرخين إشادة عظيمة.

وقد قال عنه كعت : "إن الأسكيا محمد يصلح حتى لحكم دولة بني العباس، وكل دولة أخرى غيرها"[2].

---

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 222، عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 35، والشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 71.

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص22.

وكان لهذه التنظيمات المقتدرة التي أقامها دورٌ كبيرٌ في استمرار المملكة، حتى بعد إقصائه عن الحكم.

رحلة أسكيا الحاج محمد إلي للحج، تتوج بلقب أمير المؤمنيين، وفلسفة جديدة فى نظام الحكم :

ما سرُّ رحلة أسكيا الحاج محمد، إلى الأراضي المقدسة؟

نجيب عن هذا السؤال في آخر الحديث عن رحلة الحج.

على الرغم من أني غير موافق على هذه المعلومة بتسبيق رحلة الحج على فتوحاته للمناطق لسبب واحد، وهو :

لايعقل لرجل وصف بصفات القيادة، والحنكة، والدراية أن يذهب في رحلة إلى الحج، قد تستغرق سنة أو أكثر، وأعداؤه يتحرشون به بين الفينة والأخرى، وأن يصطحب معه كبار معاونيه!.

ولكن لم أجد بُداً من ذكر ذلك على علاته لعدم وجود ما يؤيد وجهة نظري، فمحمود كعت الذي كان معه في الرحلة أي شاهد عيان، رغم أني آخذ معلوماته بشيء من الحذر لعدم مصداقيته في كثير من الأحيان، عندما قارنتها مع مؤرخين كانوا معاصرين له ومنهم من جاء بعده، فبعض معلوماته تسيطر عليها شطحات الخيال.

بعد أن أكمل أسكيا الحاج محمد، رأب الصدع في الداخل، وأمن جزءاً من بلاده بالسيطرة على (زاغ)، على يد أخيه (كرمني فاري عمر كمزاغ)، وقاتل (بكرمغ) كان ذلك أوآخر تسع وتسعين وثمانمائة 899هـ/ 1493م، وفي السنة الثانية من القرن العاشر 902هـ/ 1469م، توجه للأراضي المقدسة، أخذ مرافقيه من كافة قبائل المملكة بأن اصطحب معه من كل قبيلة أعيانها، وكان موكب الحج يتألف من ألف وخمسمائة رَجل، وخمسمائة فارس، وألف راجل، (منهم ابن أسكيا الحاج محمد) موسى، و(هُك كُرى وكُرى علي فلن)، والفقيه

ألف صالح جور و(الفا محمد تل)، و(محمود كعت) صاحب تاريخ الفتاش، وأورد كعت بأنه كان مع أسكيا الحاج محمد ثمانمائة عبد، وحمل معه ثلاثمائة ألف ذهباً، أخذها من عند الخطيب عمر من مال سني علي[1].

شق ركب أسكيا الحاج محمد طريقه، عبر الأراضي الليبية، مروراً بمدينة غدامس، وطرابلس، والمنطقة الشرقية من ليبيا، إلى أن دخل الأراضي المصرية، مروراً بالإسكندرية والقاهرة، ومنها إلى الأراضي المقدسة، وهو الخط المعتاد نفسه، الذي سلكه الملك الراحل منسا موسى ملك مالي.

كان ركب أسكيا الحاج محمد يستريح من عناء السفر، كلما دعت الحاجة، وخاصة في الليل؛ حيث ينام الركب استعداداً ليوم جديد.

وقد أورد كعت قصة مفادها أنه عندما نزل ركب أسكيا الحاج محمد بأرض الإسكندرية، وناموا هناك استيقظ الفقيه (الفا صالح جور) في آخر الليل لصلاة النافلة، فسمع نفراً من الجن فقصدهم وإذ به شمهروش وطلابه، كانوا راجعين من الحج يقرأون الكتاب، فسلم عليهم ولحق به (الفا محمد تل) وابنه (موسى الفا صالح)، ودار حديث بين الفقيهين وشمهروش، وقد سألهم شمهروش: من أنتما؟، فأخبراه بأنهما من قوم أمير المؤمنين أسكي محمد، خرج وخرجنا معه حجاً فكبّر شمهروش، وقال إن أسكي محمد رجل صالح سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول :« الخلفاء اثنا عشر» خليفة، كلهم من قريش، وأظن أنه منهم، مضى عشرة منهم، وبقى اثنان، فلعله الحادي عشر، وسيأتى آخرهم في القرن الثالث عشر! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم إنما أعيش إلى تاسع القرون، وأوافق الحادي عشر من الخلفاء، ثم يحكم بين الجن والإنس، وحينئذ أتوقع الموت ! فقالوا : هل رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فقال نعم وقرأت عليه واستبشروا بذلك، وبينما هم كذلك؛ إذ حضر له عبد جني، وقال لهم : إن رعاياكم ضربوا غلامنا حتى أغمي عليه، فإنا دعوناكم إلى الشريعة، فسأله

(1) - آمن بن بوعتو، جوامع التواريخ، مخطوط، ورقة 10.

الفقيه الفا صالح جور، كيف ضرب غلامنا رعاياكم ونحن لانراكم!؟ وقال العبد: إن الغلام تبدل في صورة حية، قال : شمهروش أميرهم من تبدل عن صورته دمه مهدور، ثم قاموا يودعونهم، ورجعوا إلى رفاقهم، ومكثوا هناك ليلتين [1].

على الرغم من أن هذه القصة من محض الخيال.. إلا أن الباحث أوردها؛ ليصل من خلالها إلى إجابة عن السؤال المطروح آنفاً.

جاء المؤرخ السوداني محمود كعت بهذه القصة، ليصل من خلالها، الى أن أسكيا الحاج محمد خليفة، في أرض السودان الغربي، وقد أوردها كعت بكل ثقة، وليس لنا ما نقول عنه إلا أنه من زبانية السلطان المروجين لأوهامه، وأمانيه، وهو مستعد أن يأتي بأغرب من هذه القصة، في سبيل إرضاء السلطان أسكيا الحاج محمد عليه.

وعندما نناقش أحداث القصة، لاننكر وجود الجن؛ فالجن قد ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى : «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون»[2]صدق الله العظيم، وجاء في موضع آخر من القرآن الكريم : «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبا» [3].

ولم أسمع حسب حد علمي، أن الجن روى حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم !.

من خلال القصة نجد تناقضاً واضحاً، يبرهن على عدم مصداقيتها؛ فالحديث الذي دار بين الجني شمهروش وألفا صالح جور وجهاً لوجه، وبين قصة الجني الذي قدم إلى ألفا صالح جور وزملائه، وهم مع شمهروش، وطلب الجني منهم التحاكم إلى الشريعة الإسلامية بسبب ضربهم للغلام الجنى حتى أغمي عليه،

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 66ـ67.

(2) - سورة الذاريات، الآية : 56.

(3) - سورة الجن، الآية : 1.

وأن ألفا صالح جور رد على الجني قائلاً : كيف ضرب رعايانا غلامكم، ونحن لانراكم؟ ·

نريد أن نتساءل :

كيف شاهد الفا صالح جور وابنه موسى والفقيه محمد تل الجني شمهروش وطلابه، والجني الذي أبلغهم عن الحادثة، وألفا صالح جور يسأل الجني كيف ضرب رعايانا غلامكم ونحن لا نراكم؟ · إذًا كيف شاهدوا الجني · من هنا ندرك أن هذه القصة أريد منها التأكيد على أن أسكيا الحاج محمد، هو الخليفة ماقبل الأخير للمسلمين في أرض السودان ·

إلا أننا نستفيد من هذه القصة الآتي :

1 - الطريق التي سلكها ركب أسكيا الحاج محمد، حيث ذكرت القصة مدينة الإسكندرية عبر الأراضي المصرية ·

2 - روح الشعوذة والخيال الذي كان مسيطراً على المنطقة، ولا يتحرج منه حتى مؤرخ معتبر مثل محمود كعت ·

وقد أورد كعت أن هذه الرحلة كانت محفوفة بالمخاطر بأن بعضًا من الرفقة ماتوا مثل (محمد كى اج)، والظروف الطبيعة أرهقت الركب، حيث هبت عليهم رياح عاتية، في اليوم الثالث من تحركهم · وقد ذكر كعت "فلما ارتحلنا من هناك سرنا ثلاثة أيام مجدِّين، فلَّما كان اليوم الثالث، هبَّت ريح شديدة حارة حتى يئس من في الرفقة من الحياة إلا قوىٌّ الإيمان، و[نشفت][1] ما في القِرب من الماء جميعاً · · · فأمر أمير المؤمنين أسكي محمد غلاماً له يقال له فرجل، أن يذهب إلى هذا العالم ألفا صالح جور · · · وطلب أن منه يدعو الله بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقينا، فزجر الغلام بأشد زجر، وقال له : إن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم أعظم من أن تُطلب بها الحوائج الدنيوية، أطلب مني أن نطلب بحرمتنا المذنبين، فقام ساعتئذ وتوجه إلى القبلة أنا عطشنا وأنت أعلم

(1)- الصحيح نشف .

[بحالي][1] منا . . . حتى سمعنا رعداً فمطرنا فصار الماء نهراً طوله مائة رمح، ثم أخذ الأمير أسكي يوزع التمر، ونسى العالم ألفا محمد تل . . . فجاء الأمير أسكي محمد، فأكب بين يديه يقبل يديه ورجليه، ويعتذر إليه النسيان . . . "[2].

إذا ما دققنا في المعلومة السابقة، نجد أنها ملفقة، وبعيدة عن الصحة، لأنه لايعقل أن يصاب ركب أسكيا محمد في اليوم الثالث من انطلاقه بالعطش، وهو مازال لم يتجاوز حدود بلاده .

ولكن مهما كانت صحتها من عدمها . . فإننا نستخلص منها عدة أمور، هي :

1 - صعوبة الطريق والموسم الذي انطلقت فيه الرحلة حيث تكثر به الرياح .

2 - استخدام القرب في حمل الماء يوحي بكثرة الثروة الحيوانية، خاصة الماعز، وكثرة الألبان والسمن .

3 - الرياح العاتية التي كانت تهب على المنطقة .

4 - عدم وجود آبار لمياه الشرب في الطريق .

5 - إن كل خادم من خدم السلطان متخصص في أمر معين .

6 - وجود علماء وصلحاء في هذه الرحلة .

7 - سقوط المطر في تلك الفترة، على الرغم من أنه ليس بفصل الشتاء .

8 - الأطوال التي تقاس بها الأنهار، وهو الرمح .

9 - الزاد الذي استخدمه أسكيا محمد في الرحلة، وهو التمر، وكيف أنه المسؤول على توزيع المؤن على الركب؛ الأمر الذي يدل على قلته .

10- تقاس كمية التمر بالحمل .

11 - احترام وتذلل الملك أسكيا الحاج محمد للعلماء والصالحين بتقبيله يدي، وركبتي ألفا محمد تل، واعتذراه له .

---

(1)- بحالنا .

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص 67-68 .

توجه الركب إلى الأراضي المقدسة، وعند وصوله أدى فريضة الحج وزار وتصدق اسكيا محمد في الحرمين من ذلك المال بمائة ألف ذهبا، واشترى جناناً في المدينة المشرفة وحبسها على أهل التكرور.

كما أنفق مائة الف، واشترى بضائع من هناك؟[1].

لم يورد عبد الرحمن السعدي وصاحب نبذة من تاريخ جني أن أسكيا الحاج محمد حبس الجنان على أهل سنغي، وإنما قال حبسها على أهل التكرور؛ لأن مدلول التكرور أعرق وأعرف، وهو الذي نعت بها أسكيا الحاج محمد في رحلته إلى الحج.

وتوجت الرحلة بتنصيب أسكيا الحاج محمد خليفة للمسلمين، في أرض السودان، وأكد ذلك عبد الرحمن السعدي، وكعت من أن شريف مكة قام بتقليد ومبايعة الأسكيا محمد خليفة بلاد التكرور، وقد قال عبد الرحمن السعدي "فطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سنغي فرضي له بذلك... وجعله خليفته، وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده فكان خليفة صحيحاً في الإسلام"[2].

أما محمود كعت : فقال : "وأما الشريف الحسني مولاي العباس، فكان مع أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أسكي الحاج محمد جالساً بحذاء الكعبة يتحادثان، فقال له الشريف مولاي العباس : ياهذا أنت الحادي عشر من الخلفاء، والذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنك جئتنا ملكاً والملك والخلافة لايتفقان، فقال له كيف ذلك ياسيدي؟ فقال له مولاي العباس : لاسبيل إلى ذلك إلا أن تخرج عما أنت فيه، فأذعن له أسكي طوعاً، وطرد جميع الوزراء عنه، وجميع آلات السلطنة وأموالها، وجعل ذلك كله بيد العباس وقعد عازلاً

---

(1) - مجهول، نبذة من تاريخ جني مخطوط ورقة 3، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص73

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 73.

لنفسه، ودخل مولاي العباس في الخلوة ثلاثة أيام، ثم خرج يوم الجمعة، ونادى أسكي الحاج محمد، وأجلسه بمسجد البلدة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه في تلك الأرض.. فقد خالف الله تعالى ورسوله"[1].

من خلال استقراء النص السابق وبقية نصوص المؤرخين، نعتقد أن أسكيا الحاج محمد، أراد أن يضفي الشرعية الروحية على ملكه لعرش سنغاي.

غادر ركب أسكيا الحاج محمد الأراضي المقدسة، فمر على القاهرة، والتقى بالشيخ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، وقد دار بينهما حديث مفاده أن أسكيا الحاج محمد سأل السيوطي عن الخلفاء، الذين ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابه اثنان بمصر، وواحد بالشام واثنان بالعراق، وقد انتهوا جميعهم، وبقى اثنان بأرض التكرور، أنت أحدهما، ويأتي بعدك الثاني، وسأل أسكيا الحاج : هل يخرج من صلبه من يقيم الدين ويصلح أمره؟ فأجابه بأنه يأتي رجل صالح يدعى أحمد، يظهر العدل، والصلاح والجود، والتقى، والزهد، والنصرة، في بعض جزائر (ماسنة)، يسبقك بكونه متبحراً في العلوم، وأنت لاتعلم إلا الأحكام، والصلاة، والزكاة، والاعتقادات، وهو أخر الخلافاء المذكورين، ثم سأل أسكيا : هل هذا الخليفة يجد الدين خامداً فيوقده؟ فأجابه بأنه كشرارة حجر؛ فينصره الله على جميع الكفار[2]. وعند عودته ألف له علماء مصر بما فيهم السيوطي، كتاباً اسمه تواليف ووصايا[3].

أعتقد أن تقليد أسكيا الحاج محمد بالخلافة أمر مستبعد، فأمير مكة طبقاً لرواية كعت، لا يملك هذا الأمر، كما أنه من المستبعد أن الخليفة العباسي

---

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 175-176 ، وأبو عبد الله أحمد بابا بن الأمين التنبكتي المنح الحميدة في شرح الفريدة، مخطوط، المكتبة الوطنية الجزائر، 151، ورقة 3.

(2) - آمن بن بوعتو، مخطوط، ورقة 10.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 12.

بالقاهرة، يقلد شخصا آخر الخلافة حتى ولو كان بالسودان الغربي، وأعتقد أن الأمر لايخرج عن كونه مجرد اعتراف من خليفة القاهرة، أو من أمير مكة، بولاية أسكيا محمد لحكم سنغاي.

يؤكد هذا الرأي ماذكره كعت في مناسبة أخرى، على لسان أسكيا الحاج محمد لابنه اسماعيل الذي أعاد أباه من منفاه إذ قال أسكيا الحاج محمد، أن شريف مكة الذي هو أميرها قال له "أنت أميري ونائبي وخليفتي في إقليمك" فرد عليه أسكيا الحاج محمد "وأنت أمير المؤمنين وأنا خليفته وأميره ونائبه" فكلمة خليفة بمعنى نائب (1).

عاد أسكيا الحاج محمد وركبه، بعد أن قضى فترة من الزمن بمصر، قابل فيها رجال الدولة والعلم، منهم العالم جلال الدين السيوطي، الذي أحضر أسكيا الحاج محمد أحد أفراد أسرته، قصد التبرك به (2).

وفي طريق عودة أسكيا الحاج محمد، مَرَّ على مدينة تيجدا غرب الأيار، حيث يقيم العالم (محمد بن عبد الكريم المغيلي)(3)، وقد دعاه أسكيا الحاج محمد إلى مدينة جاو ولبى الطلب(4). رجع أسكيا محمد إلى بلاده وكله حماس لنشر الدين الإسلامي، فوسَّع رقعة مملكته، التي شملت جل أقاليم السودان الغربي(5).

وأورد الوفراني عن رواية نصيحة أهل السودان «. . . فرجع إلى السودان، فنصر السنة، وأحيى طريق العدل، وجرى على منهاج الخليفة العباسي في

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 86.

(2) - التقي الباحث مع عبد الرحمن السيوطي، أحد أفراد أسرة السيوطي، التى تقيم في مدينة تنبكت يوم، 15-8-1985، بمدينة تنبكت.

(3) – للمزيد عن شخصية محمد بن عبد الكريم المغيلي، انظر الفصل الثانى.

(4) - زاكاري مايكوربما وبوبي كادو وبوبي جادو وآخرون، المرجع السابق ص 89.

(5) – محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص 12.

مقعده، وملبسه، وسائر أموره، ومال للسيرة العربية وعدل عن سيرة العجم فصلحت الأحوال»[1].

وهذا الشاهد يعطي صورة جلية عن مدى تجاوب الأسكيا الحاج محمد الكبير، مع التعاليم الإسلامية والحث على تطبيقها.

نرجع إلى السؤال الذي طرح في بداية الحديث عن الرحلة.

وللإجابة نورد الآتي :

أولا : رحلة الحج عند ملوك السودان الغربي، لا يقوم بها إلا السلطان القوي، وبذلك فهي نوع من إبراز القوة، أمام ملوك وحكام المناطق الأخرى .

ثانيا : محاولة حصول أسكيا محمد على لقب أمير المومنين من شريف مكة، وتزكيتها من القاهرة، حتى يضفي على نفسه الشرعية الروحية، ويكون أمره مطاعاً، وقد بدأ في هذا البرنامج من بداية الرحلة، والقصة التي أوردها محمود كعت مع الجني شمهروش، والفقيه ألفا صالح جور، كفيلة بإسناد هذه المعلومة.

ثالثاً : إطلاع شمال أفريقيا، والشرق العربي على السودان الغربي، وما هو عليه من الثراء، حتى أنه وزع جزءاً من الأموال على أهل الحجاز والقاهرة.

رابعاً : محاولة أسكيا الحاج محمد الاستفادة من تجارب الحكم في القاهرة؛ فقلد السلطان العباسي في مقعده وملبسه وسائر أموره.

خامساً: زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .

والجدير بالملاحظة أن الأسكيا الحاج محمد، قد استن سُنَّةً حميدة، أصبحت لزاماً على من جاء بعده، حيث أعطى الحجاج السودانيين من أهل سنغاي مكانة خاصة، في مراسيم البلاط الملكي، فكان يستقبل بنفسه الحجاج العائدين، خارج العاصمة جاو، ولا يدخلون إليها إلا بعد مشاورة الأسكيا واستئذانه، وبعدها يخرج إليهم الأسكيا لملاقاتهم، ويقدم لهم الهدايا ويتلقى منهم الدعاء[2].

---

(1) - الوفراني، المصدر السابق، ص90.

(2) محمود كعت، المصدر السابق. ص111.

القضـاء

كان منصب القضاء منصباً صعباً، يرفضه أهل التقوى والورع، خوفاً من إصدار حكم جائر عن غير قصد، فينالهم العقاب الرباني، ويعتبرون تولي القضاء كارثة عليهم، وقد يجبر السلطان الفقيه على تولى أمر القضاء؛ وهذا ماحدث للفقيه محمود بن أبي بكر بغيع على تولي مهمة القضاء بأمر من أسكيا إسحاق، على الرغم من رفضه القاطع لهذا المنصب ، وكذلك لرفض أهل بيته له، وقد قالت له زوجته، لو قتلوك أفضل من تولي هذا الأمر. إلا أن القاضي محمود أخذ على حين غرة، وألبسوه قميص السلطان أسكيا إسحاق وعمموه، وهو يبكي بكاء الصبي، وقدموه جبراً وقرؤوا عليه كتاب أسكيا إسحاق، وحمل على فرس ، ونقل إلى داره، ومن شدة رفضه لهذا المنصب، دعا على السلطان أسكيا إسحاق بقوله: «إسحاق نفي عن عيني الكرى وألزمني السهر، كدر الله عليه عيشه، وأنزل عليه ما يشغله »، فرجع أصحاب أسكيا الذين أرسلهم ليولوا ذلك القاضي، فوجدوه قد مات، وهو الذي ولى القاضي عثمان درم قضاء تندرم[1].

وفي عهد الباشا محمود لنك، نصب أمر القضاء للولي الصالح محمد ابن أندغمحمد بن أحمد يرى عام سبعة عشربعد الألف 1017هـ / 1698 م ، وفي يوم السبت ثاني عشر شوال عام عشرين بعد الألف 1020/ 1611م تولى القضاء الفقيه العالم سيدي أحمد بن أندغمحمد بن أحمد بُرى، شقيق الفقيه محمد سالف الذكر بأمر من الباشا محمود لنك[2].

لقد كانت مكانة القاضي مرموقة، عند سلاطين السودان الغربي، وكان القاضي صريحاً أمام الخاصة والعامة بمن فيهم السلطان، وإذا شاهد خطأ من

---

(1) - عثمان بن فوديه، ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأذكار، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 263، ورقة 108 محمود كعت، المصدر السابق ص90.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص219.

السلطان يزجره ولا يعبأ بمنصبه، والشواهد كثيرة في هذا المضمار، نورد حدثين منها على سبيل المثال لا الحصر ، فقد وجه شيخ الإسلام (أبو البركات) إهانة إلى أسكيا موسى، الذي تولى أمر البلاد، بعد اغتصاب الحكم من والده أسكيا الحاج محمد، عند مجيء الأول إلى مدينة تنبكت، بقصد زيارة القاضي أبي البركات، فلم يقابله القاضي بوجهه، وعندما سأله أسكيا موسى عن سبب ذلك، قال له: لا أستقبل وجهاً خلع أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، فقال له: ما فعلت ذلك إلا خوفاً على نفسي[1].

أما الحادثة الثانية، والتي سبق الحديث عنها، ونوردها الآن بشيء من الإيجاز للتدليل هي عند زيارة أسكيا إسحاق إلى مدينة جني، طلب من البراح أن يجمع له أهالي المدينة، خاصتهم وعامتهم، وعندما تجمعوا قال لهم أسكيا: إذا كان هناك أحد، اقتطع حق أحد ظلماً، نأخذه الآن منه بالقوة، فقام له الفقيه محمود ابن أبي بكر بغيع وقال: هل ما تقوله حقاً، قال: نعم، قال : إذًا أنت أكبر الظلمة فما رد عليه أسكيا إسحاق شيئاً، بل رجع إلى بيته وهو يبكي)[2].

ونتيجة للحظوة التي كان عليها القضاة، كانوا يطلبون الشفاعة للخارجين عن طوع السلطان، فقد طلب الشفاعة القاضي أبو حفصي عمر بن محمد، حينما أرسل رسالة مع الشيخ سيدي عبد الله بن امبارك الغاني، ومعه الفع محمد ولد درر والفع كنبعلي، يطلب لهم الصفح من الأمير مولاي أحمد الذهبي على ما صدر منهم من معارضة، للقائد المصطفى التركي، وأنهم في طاعة الله ورسوله وطاعته، وذهب الرسول من تنبكت إلى مراكش، حاملاً الشفاعة إلى الأمير، وقبل شفاعة القاضي عمر، وأكرمهم غايةَ الإكرام ، ومكثوا عنده سنة، ثم سفرهم مع القائد (بوا خيار) إلى تنبكت[3].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص83، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص86.

(2) - نفسه ص90.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص167.

«. . . ومن مهام القاضي الفصل في الأمور التي تتصل بحياة الناس اليومية، فيحكم في الخلافات الشخصية، من طلاق وزواج وإرث وديون وقروض، وتجارة وعقارات وماشاكلها[1]، وقد أورد صاحب مخطوط جامع فروع العلم عن مهمة القاضي بقوله : «وأما القاضي فهو نائب الإمام في تنفيذ الأحكام الشرعية، فإن كانت الأرض سائبة، كما في تنبكت وما حولها أو في حكم السائبة . . . فعلى القاضي أن يفصل في هذه المسائل. . . "[2].

توضح لنا هذه المخطوطة، أن مهام القاضي، لا تقتصر على الأحكام الشرعية بل لديه مهام أخرى منوطة به، وهي مراقبة التسيب في الزراعة أو نحوها، فهو الذي يرشد ويزجر، والقاضي في مجتمع السودان الغربي يمثل كل جوانب الخير، والعدالة، والعطف، والصدق والإخلاص، له المشورة والملجأ ، وكان الناس يقصدونه لحل كل أمورهم، وحتى التي تحتاج إلى مشورة السلطان، تأتي عن طريق القاضي، وللقاضي أعوان يرسلهم إلى السلطان كما كانت من الأعباء، التي تقع على عاتقه مراقبة الأحوال المدنية، ومدى سيرها على الطريق المستقيم، ويتولى القاضي الإشراف على أرزاق اليتامى فهو وليهم، يأخذ لهم الحق، وإذا ما توفي غريب، فإن ماله يحفظه له إلى أن ياتي وكيله، أو وريثه الشرعي، وكان بيت القاضي مأوى وملجأ، يلتجئ إليه الفارون من جور السلطان، والسجون، والخائفون ، ولا يجوز لأتباع السلطان الدخول إلى بيت القاضي.

من مهام القاضي الإشراف على بناء المساجد، وتوسيعها، وترميمها، وبناء المدارس، وسير العملية التعليمية، فهو الذي يعين المدرسين، ويحصى الطلبة ويقدم لهم يد العون، وقد تصل مهام القاضي إلى التحريض على الثورة إذا ما شعر بالظلم.

---

(1) - مجهول، نوازل، علماء السودان، مخطوط، مكتبة الحاج عبد القادرالتبينى بأقدز، دون تصنيف، ورقة 18.

(2) - محمد بن محمد بن الحسن، جامع فروع العلم مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم المخطوط، 100، ورقة 93.

وكان منصب القضاء يتفاوت من مدينة إلى أخرى، فكان قاضي تنبكت له صلاحيات أكثر من زملائه، في المناطق الأخرى، في إقالة أي قاض، دون الرجوع للسلطان، إذا ما رأى منه عدم الاستقامة في تصرفاته أو أحكامه[1].

معنى هذا أن لقاضي تنبكت ميزات، تختلف عن بقية قضاة المدن الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى الجانب الروحي الذي تختص به تنبكت، عن غيرها من مدن السودان الغربي، والذي قال فيها صاحب السعادة الأبدية : "مقامها من السودان مقام الوجه من الإنسان[2] ".

وكان القاضي مراقباً في إصدار أحكامه من طرف الرعية، فعندما يشعر أحد الناس عدم عدل القاضي وعدم تطبيقه للشريعة الإسلامية، يبعث برسالة إلى السلطان يشرح له الحالة التي شاهدها، وهذه الرسالة التي نورد فقرات منها، تبين ذلك : «الحمد لله الذي شرع الأحكام للعباد، وكفهم تنفيذها عن الظلم والفساد، وأتحف الحكام بالشرائع الإسلامية... وأغناهم عن السياسية الكسروية، وعصمهم باتباع المنقول... عن حكيم تخمير العقول...

أما بعد، فالسلام التام والتحية والإكرام، إلي أمير المؤمنين الشيخ أحمد ابن الشيخ أحمد بن محمد بن أبي بكر، ومن معه من الإخوان الخلصان من العرب والفلان، ليكن في كريم علمكم أن ماحكم به الأخ الإرض، والحبيب المرتضى القاضي أحمد بن الفا عمر بين الصالح ويحي أولا ورجع عنه لما هو أصوب...[3]

أما عن رواتب القضاة والفقها، فيدفعها الملك من الخزينة، وهي رواتب محترمة، وقد تدفع رواتب القضاة من أموال الأوقاف[4].

(1) محمود كعت المصدر السابق ص260 .

(2) أحمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية، مخطوط ورقة 10.

(3) مجهول، يبعث برسالة إلى أمير المؤمنين أحمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر سعيد، في حرص العلماء على تتبع أحكام بعضهم، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتى رقم 2500 ورقة 1.

(4) حسن الوزان المصدر السابق ج2 ص167 .

فقد أورد صاحب مخطوط جامع العلم بأنه «يقدم للقاضي رزقه من الأوقاف المطلقة . . . فإن لم توجد فمن أوقاف المساجد، وإما إعطاؤه من غيره»[1].

أما تمويل الأعمال الخيرية من بناء المساجد، وتوسيعها، وبناء المدارس، فكانت تأتي من الملك، ومن ذوي البر والإحسان، وكذلك من أموال الأحباس[2].

وعادة ما يكون المسجد المقر الرئيسي للقاضي، لإصدار الأحكام، وقد يصدر أحكامه، في بعض الأحيان، حتى تحت الأشجار، بأن تنصب له كنبة خاصة به ويفصل بين الرعية، وهذا ماحدث لكاتب موسى، الذي كان يفصل في مسائل القضاء، في بعض الأحيان تحت الأشجار[3].

أما إذا تغيب القاضي، أو سافر إلى بلاد بعيدة، مثل الأراضي المقدسة ونحوها، فإنه يُخلف بدله قاضياً يختاره هو، وما يؤكد ذلك أنه في العام الخامس عشر، حج القاضي محمود بن عمر، وولى القضاء بعده القاضي عبد الرحمن، ومن بعد رجوع القاضي محمود من الأراضي المقدسة، مكث في تنبكت، دون أن يسلم له الأخير أمر القضاء، الذي استنابه فيه، فسكت القاضي محمود إلى أن حكم القاضي عبد الرحمن، في نازلة مخالفة للكتاب والسنة، فأرسل له القاضي محمود ينقض ذلك الحكم لمخالفتة لنص الكتاب والسنة، والإجماع فأبى إلا أن ينفذ حكمه، فأُبلغ الخبر إلى أسكيا محمد، فأمر رسله بعزل القاضي عبد الرحمان، وإرجاع القاضي محمود إلى مكانه، فجمع رسل أسكيا محمد علماء وفقهاء تنبكت في مسجد سيدي يحيى، وطلبوا منه تسليم القضاء لسيدي محمود باعتباره نائبه، والنائب يبطل عمله بحضور المعنى[4].

أما عن إذا توفي القاضي، فإذا كان له ولد وعُرف عنه الصلاح، فإنه يقدم

---

(1) محمد بن محمد بن الحسن، جامع فروع العلم، مخطوط، ورقة 23 .

(2) عبد الرحمن المقدسي، السعادة لمن أراد الحسنة والزيادة، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 161، ورقة 37 ـ 38 .

(3) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 57.

(4) محمود كعت، المصدر السابق، ص 76.

لهذه المهمة، فقد تولى أمر القضاء ألفع محمود بن عمر بن الفقيه القاضي محمود بن عمر بن محمد اقيت[1].

أما أنواع العقاب تتفاوت، بحسب الجرم الذي يقترفه الشخص، فالقاضي له حق تطبيق عقوبة السجن وغيرها، وقد أورد عبد الرحمن السعدي أن القاضي محمود عندما جاء له بعض الأهالي من تنبكت، يطلبون منه عزل أحمد والد (ننا سرك)، وتعيين ابن (أبو القاسم التواتي)، رفض القاضي وقال : لهم إذا لم تخرجوا سجنتكم[2].

أما عقاب الرجل الذي يمشي بالنميمة بين الناس، فينقشونه بالحمرة والسواد والبياض ويركبونه على حمار، ويطوفون به البلدة بالنداء والبريح، ويقولون هذا جزاء من يسعى بالنميمة[3]، كما كان بعض قضاة السودان الغربي، لديهم أحكام غريبة عن الشريعة الإسلامية، وهي قطع الأذن حسب نوع الجرم، فالذي يسرق مثلاً، فإذا كانت السرقة بسيطة تخرم أذنه، وإذا زاد الجرم تقطع ثلث الأذن، وإذا زاد أكثر تقطع الأذن بالكامل وإذا كان أكبر من ذلك تقطع الأذنان، وهذا ما أورده أحمد بن أبي بكر في رسالته إبطال قطع الأذن حينما قال: " . . . وحكم النافذة في الأذن والجرم فإن انقطعت الأذن من أصلها فخمس ماية دينار، فإن انقطعت بعضها، وبقي البعض فحساب ذلك!! فإن انقطع أذنيين. . . "[4].

وهذه المعلومة جديدة، على تاريخ السودان الغربي، لم يتعرض لها كعت، ولا السعدي، ولا أحمد بابا في كتاباته عن حد علمي، ولكن هذه الرسالة تذكر شيئاً جديداً في تاريخ المنطقة، فهي تورد أن الدية كان يتعامل بها، في إصدار أحكامهم الشرعية، فإذا ما قتل شخص شخصاً آخر، فتؤخذ منه الدية، وهذه

---

(1) محمود كعت، المصدر السابق ص 93.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 60.

(3) نفسة، ص 90.

(4) أحمد بن أبي بكر، رسالة إلى جماعة أبناء محمد بن يوسف، بإبطال قطع الأذن، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم n/145 ، ورقة 2.

الشهادة تؤكد ذلك، والتي يرجع تاريخها إلى عام ألف ومائة وثمانين 1180هـ / 1766م، ونورد مقتطفات منها تقول : «هذه نسخة صحيحة منقولة من أصل صحيح ونصها؛ ليعلم الواقف عليه من قاضٍ وغيره، أن الشرفاء أعني بني سيدي حم بن الحاج سيدي محمد بن مولاي عبد القادر، وسيدي محمد ابن عبد الهادي، وبينهم مولاي الشريف، وأخاه المرحوم مولاي عبد الوثيق وسيدي محمد بن مولاي صالح أعطوا دية مولاي أحمد بن مولاي الزين، لمّا جاءهم أخوه مولاي محمد بن معروف عندنا، ولم يبق عليهم من تلك الدية قليل، ولا كثير ... لتسع خلون من المحرم افتتاح العام الموفي الثمانين ومائة والف عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر، غفر الله عن الجميع آمين...»[1].

هذا عن اختصاصات قاضي المدينة، أما الأمور التي تتعلق بأمن الدولة، من سرقة السلطة، أو عدم تقديم الولاء والطاعة؛ فالفصل فيها للسلطان، حسبما يشير عليه مستشاروه.

تتفاوت أنواع العقاب وأقصاها القتل، فكل من لا يدعو السلطان باسمه أسكيا، ومن لا يحمل التراب على رأسه، ومن لا يركب وراءه، يعتبر خارجاً عن حكمه، فيقتل بطريقة بشعة تنم عن أنها أقصى العقوبات التي اخترعتها أمهات أفكار السلطان، فطريقة القتل بأن تحفر له حفرة عميقة، توضع فيها حيات ويردم عليه التراب، وهذا ما حدث (لأبي بنك) مع السلطان أسكيا موسى، حينما خرج عن نطاق حكمه[2]. الأمر الذي جر عليه المشاكل، كما يوجد لديهم نوع آخر من العقاب، وهو لايختلف كثيراً عن النوع الأول، ويطبق على الجرم السابق نفسه. بأن يوضع المراد قتله في (سنكوُر)[3] ويخاط عليه جلد

---

(1) عمر بن محمد بن أبي بكر بن محمد ، شهادة على دفع دية، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 120ورقة 1

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص84.

(3) سنكور في لغة سنغاي نوع من الطين شديد التماسك، إذا خلط بالماء، يبنون به أعمدة منازلهم لقوته . والمتهم يسربل به حتى يضغط على جسمه ضغطة قوية، فيزداد في ألمه، وكأنهم يريدون أن يعذبوه عذاب القبر، قبل أن يوضع فيه على رأى المثل.

بقرة، ويردم في حفرة عميقة، تصل إلى مترين حياً، وقد حكم بهذا العقاب أسكيا إسحاق على هنبركي[1].

والنوع الثاني من العقاب النفي إلى مكان ناء مليء بالقاذورات؛ فقد نفى أسكيا موسى والده أسكيا الحاج محمد إثر الانقلاب عليه إلى جزيرة نائية، تكثر بها الحشرات، والناموس، والضفادع. وقد يودع المتهم السجن، وسجون السودان الغربي، أكبرها سجن تنبكت، وجاو وجني، ودند ، فقد سجن أسكيا (محمد بان) به خصومه، الذين دبروا ضده المحاولة الانقلابية الفاشلة[2] .

ومن أنواع العقاب الأخرى، التعزير بأن يوجه السلطان للمتهم إهانة بتعييره بما هو فيه؛ فقد استخدم هذا الأمر أسكيا إسحاق مع (ببكر بن القف دنكُ)، عندما قبض عليه رجاله، وكان ببكر رأسه شيباً، قال أسكيا (هاتواكرزي)، وأعطوه ببكر ليستر شيبْه[3].

ومن أنواع التعزير والتشهير، التي استخدمها حكام السودان الغربي، ضد مقترفي الجرائم جرم من يمشي بالنميمة، بين الناس فيحكم عليه القاضي، أو السلطان على السواء فيضرب مرتكبها ، بسير مفتول ثقيل، وقد يموت تحت الضرب مثل محمد (كي أجى). وقد تقدم له الإهانة أمام الناس، وهو نوع من العقاب، وهذا ما حدث (لسعيد مار) عند ما اتهمه أسكيا إسحاق، بأنه يأكل في أعراض الناس، فقال أسكيا فيه : إذا جلس على طرف قضيب جلس ، وإذا غرز لسانه في حجر ثقبه، وأمر براح المنطقة، بأن يوثق سعيد بحبل، ويربط في (قربوس)[4] الجواد، ويلف به البلدة من أولها إلى آخرها، وهو يقول من يمسك هذا الرجل في أول الليل أو آخره بجوار بيته، أو في الطريق فليقتله فدمه مهدور، ومن تركه فقد ترك عدو الله ورسوله وعدوي.

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 128ـ 129 .

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 65-89-122، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص143.

(3) نفسه ص129..

(4) مؤخرة السرج.

من خلال استقراء نظام القضاء في السودان الغربي.. فإنه يترجم لنا عدة جوانب، وهي:

1- صعوبة مهمة القضاء، ودرجة التقوى التي كان عليها هؤلاء القضاة، وفرارهم من تولي هذا المنصب، وتأثرهم بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وتذكرنا مواقفهم بالفاروق عمر، الذي عندما ولي القضاء، قال قولته المشهورة: هلك بيت عمر.

2 - حب كثير من سلاطين سنغاي للعدالة، وقول كلمة الحق، حتى ولو كانت موجهة لهم شخصياً.

3 - تطبيق القضاة في أحكامهم مبدأ الشريعة الإسلامية، في كثير من أحكامهم مثل الدية.

4 - حالة الاستقرار التي شهدتها المنطقة، والنظام وقلة المخالفات ، وصرامة العقاب، من قتل، وسجن وتعزير، ونحوه، جعلت المنطقة تشهد حالة من الاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي؛ فالأمن صمام الأمان، وبالتأكيد طالما هناك أمن، كان هناك استقرار في السياسة، وازدهار في الاقتصاد، ونهضة اجتماعية، وثقافية، وإذا اختل الأمن والعدل، تعطل كل شيء.

نظام الحكم ومراسم تنصيب الملك :

القاعدة العامة لنظام الحكم في الأغلب الأعم الوراثة، إلا أن إرادة شعب سنغاي، في بعض الأحيان، تتجاوز هذا التنظيم، وتفرض نفسها، فقد عين السلطان أسكيا إسحاق ابنه وليًا لعهده، إلا أن أهالي سنغاي، رفضوه بعد موت أبيه، ونصبوا أسكيا داوود[1].

أما عن مراسيم تنصيب الملك.. فقد كان تنصيب الملك، وهو السلطة العليا في البلاد بطقوس معينة، تترجم الواقع المعيش لنظام الحكم في تلك الفترة.

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 93 .

عند تنصيب الملك، هناك شخص يعرف بضارب طبل السلطان، يضرب الطبل إعلاناً بتنصيب السلطان، وهذا ما فعله أهل سنغاي، بعد موت أسكيا محمد، بأن ضربوا طبل السلطان على أسكيا إسحاق الزغراني، وحلفوا على المصحف بأنهم لايخونونه أبداً.

يكون التنصيب عادة في القصر الملكي، بأن يجلس المنصب على كرسي الحكم، يحيط به الزمارون، وضارب الطبل يضرب أمامه، وحوله بطانته ودخلاؤه، وفي هذا الحفل يمنح إشارات السلطنة، متمثلة في قميص مزركش، وغطاء على الرأس، يشبه في شكله التاج، بالإضافة إلى العمامة الخضراء، والسيف والبردة. وقد أخذوا هذا التقليد عن الدولة العباسية، وابتداءً من أسكيا الحاج محمد، الذي قلده الخليفة العباسي في رحلة الحج، عام في 901هـ/ 1495م[1] .

بعد إتمام مراسيم التنصيب، يستقبل الملك رؤساء الولايات، والأقاليم، وقادة الجيش ؛ وبعد صلاة الظهر في المسجد، ويقسمون قسم الولاء والطاعة. وطيلة يوم التنصيب تضرب الطبول، ويخرج أهالي جاو العاصمة إلى الشوارع، يرقصون إلى ساعة متأخرة من الليل، وفي اليوم الثاني من التنصيب، يبدأ الملك الجديد عمله بالخير، والبركة بأن يوزع الصدقات على الفقراء والمساكين، المحتشدين خارج القصر[2]. كما يقوم بتعيين نواب عنه في الأقاليم، والمقاطعات والموانى البعيدة، ومن ينوب عنه في استقبال الوفود، والناس كما يعين قضاة المقاطعات، والوزراء، وتسبق هذه التعيينات صلاة الاستخارة، إلا أنها شكلية ـ إلى حد كبير ـ إذ لا تأثير لها على التعيين، وقد عين السلطان أسكيا داوود، (بكر على دود) تحت ضغط ابنه فاري[3].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ص1، وزبادية، مملكة سنغاي المرجع السابق ص63.

(2) – محمد محمد المفتي التاريخ الخاص بالتواتر مخطوط ورقة 200 ، زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص63.

(3) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص ص97ـ101، وحسن الوزان ، المصدر السابق، ج 2 ص168.

أما القصر الذي يجري فيه التنصيب، وهو مقر الملك، فعادة ما يكون كبيراً، ومقسماً من الداخل إلى عدة غرف: غرفة للنوم، بها سرير مفروش، عليه عدد من أنواع الحرير. وكان قصر أسكيا إسحاق على هذا النحو، كما يوجد بالقصر عدد من الأبواب، وأول ما يواجه الداخل إليه عند المدخل، الباب الذي عليه صاحب السلطان الذي مهمته تنظيم الدخول ومقابلته، وكان من حقه سؤال الزائر، عن سبب الزيارة، حتى ولو كان ابن السلطان. كما كان للسلطان رجل يعرف (بلوندُ) مهمته أن يعيد ما قاله السلطـان للناس[1].

وبالإضافة إلى الحاجب، كان هناك عدد من الصفوة، الذين يقومون على خدمة السلطان في قصره، وخارجه، فهناك رجل يسير أمام السلطان، عند خروجه، وعند ركوبه، ويشد له السرج بالمناوبة، ويعرف عندهم برب الطريق؛ وكان من بين خدامه من يشرح له أي شيء يصادفه السلطان يدعي (ونْدعُ)، وهو الذي أخبر أسكيا داوود بالحاج الكنتوي بأن أصل أجداده عبيد. ويقوم بخدمة السلطان، عند ركوبه رجلان واحد عن يمينه، والآخر عن شماله يمسكون قربوص السرج، ويقوم السلطان بوضع يديه عليهما[2].

وهناك من يختص بشد السرج، من الرجال يضع السلطان يده على رأسه، ويكون محاذياً له، وقد يغلظ ذلك الخديم القول للسلطان، ويرفع عليه صوته، إذا رأى ما ينكره قائلاً: « جعلناك حاكمًا في الأرض ولا ترعاها»[3].

وعلى ما يبدو أن مهمة هذا الخديم، تكمن في تنبيه السلطان إلى ما يقع فيه من أخطاء، وربما كان سماح السلطان، بهذا التجاسر عليه إحياء سنة الخلفاء الراشدين.

ومن خدام سنغاي المترجم، ومهمته تجميع الناس للسلطان، لإبلاغهم

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص98، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص 101.
(2) - نفسه، ص101- 111 ـ 114 ـ 116نفسه ، ص105.
(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص105.

الأخبار السلطانية، والترجمة له، وقد استخدم أسكيا الحاج محمد المترجم، عندما أراد مخاطبة أهل مدينة جني[1]، كما كان لهم كُتاب خاصون بهم، فأسكيا محمد بان مثلاً، كان له كاتب يدعى بكر لنبار. بالإضافة إلى ذلك كان لسلاطين سنغاي خدامٌ يعرفون بوكلاء الأعمال، مهمتهم الإشراف على أموال ومزارع السلطان، وقد كان لأسكيا داوود، وكيل أعمال يدعى «مسك كل الله»كان يتصرف في كثير من الأمور، دون الرجوع إليه، وقد يصل من الثراء حداً غير معقول[2]. ولسلاطين سنغاي مغنٍّ خاص، يرافق السلطان عند خروجه للحرب، ومهمته حشد الهمم، وقد كان لأغاني هذا المغني آثارها القوية، بحيث أن السلطان في بعض الأحيان، يتخذ قراره بالحرب، على الرغم من عدم استعداده لها من قبل[3]. من خلال الفقرة السابقة يتضح أن هناك تأثيراً وتأثراً بما هو في إفريقيا، جنوب الصحراء، وشمالها، فهذا المغني موجود في ليبيا، وعادة ما يكون أسمر اللون، ويوضع في رقبته طبل، يدق عليه، ويغني بكلمات فيها الحماس والإقدام على الحرب.

كما أن لخيل سلاطين سنغاي خدامًا، من قبيلة (جندك)، يقومون على رعايتها ويحمل أبناؤهم لها الغذاء[4].

من خلال العرض السابق، . . . يتضح أن هناك نظاماً طبقياً تختص فيه بعض القبائل بوظائف وضيعة، يتوارثها أبناؤها صغيراً عن كبير.

طريقة جلوس الملوك فى قصورهم واستقبالهم للرعية:

يجلس السلطان على مكان يطلق عليه السرير[5]، وكلما أراد شخص أن يخاطبه جثا على ركبتيه، آخذاً التراب وواضعاً له على رأسه، وكتفيه، وهو سلوك ينم عن الخضوع، والتذلل، وقسوة، وجبروت السلطان.

(1) - محمودكعت، المصدر السابق، ص88.

(2) - نفسه، ص98-108-134 ، حسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ص ص171-172 .

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص92 .

(4) - محمود كعت، المصدر السابق، ص57 .

(5) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 88.

وقد ورد أن هذا السلوك، لا يقوم به إلا من لم يسبق له أن خاطب الملك من قبل[1].

والسؤال الذى أطرحه هو:

ما الفلسفة من وراء هذه الطقوس؟ هل هي نتيجة للخوف من السلطان؟ أم هي نوع من الطاعة والتكريم؟ أم ماذا؟ لقد سألت عدداً من علماء ومؤرخي السودان الغربي، خلال زيارتي المتكررة للمنطقة حول هذا الموضوع، فأجابوني إجابات متقاربة، فحواها بأنه ليس كل الرعية تستطيع مقابلة السلطان، بل الذي يقابله يكون من المحظوظين، وعادة ما يكون من المتميزين في شيء ما. كما أضافوا بأن الذي يدخل على السلطان، لا يغسل جسده، ولا يده عند عودته إلى بيته، لمدة من الزمن ليتبرك به أهله وأحبابه؛ نظراً لأن رائحة السلطان ما تزال عليه. إضافة إلى ذلك، فإنه يأخذ من تحت نعل السلطان قليلاً من التراب، ويضعه في قطعة قماش خضراء، ويعلقها في بيته تبركاً به ودليلاً على مقابلته للسلطان[2].

أما استعمال التراب دون غيره من المواد، فهو ينم عن جانب روحي، إذ تعني عندهم منه خلق وإليه يعود.

لكن في المقابل هناك أفراد مقربون من السلطان، لا تنسحب عليهم هذه الطقوس، عند مقابلتهم له، مثل كرمن فار وجنكي، الذي كان يدخل على السلطان أسكيا الحاج محمد، دون أن يخلع قبعته، بل إن السلطان يحمل له دقيق الطعام.

كل الرعية لا تناقش، ما يقوله السلطان أسكيا الحاج محمد، بل يثنون عليه،

---

(1) - حسن الوزان، المصدر السابق ج 2 ص ص 166-187 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص82، ومحمودكعت، المصدر السابق، ص 101.

(2) محمود الزبير، جبريل دكوري، وأحمد سالم الشود، وأبو بكر جبريل، ومولاي زيدان شريف.

إلا (دن فار)، فإنه لا يتحرج في مخاطبة السلطان، إذا حاد عن الحقيقة. وكذلك كل الرعية يدخلون على السلطان سيراً على الأقدام. إلا درمكُى، فإنه يدخل لدار السلطان راكباً، وينادي عبده ويرسله لأموره دون خوف من السلطان. ومن الخصوصيات ألا ينادي أحد من الرعية السلطان باسمه، إلا شخص واحد وهو (كُسُر دنك)[1].

من خلال العرض السابق، يتضح أن هذه الخصوصيات، التي خص بها أسكيا الحاج محمد بعضاً من رعيته دون غيرهم، هي في الحقيقة بقدر ما هي احترام وتقدير لهم، هي نوع من طقوس القصر، فهو أراد بهذا العمل أن يكون من بين الرعية من يخالف الرعية في سلـــوكها أمامـه، والدلـــيل على ذلك توزيعه الأدوار علـى عدد من أتباعه.

ومن طقوس سلاطين سنغاي عند جلوسهم على سرير الحكم، أن لا يجلس معهم إلا الشرفاء والعلماء، وقد تميز بهذه الميزة السلطان أسكيا الحاج محمد، فكان ينبسط لمقدم العلماء إليه بأن يأمر بفرش حصير الصلاة لهم، فهو لايقوم إلا للعلماء والحجاج القادمين من مكة، ولا يتناول الطعام مع أحد كائنًا من كان إلا مع العلماء والشرفاء وأولادهم، ولو كانوا صغاراً في السن[2].

خزائن بيت المال :

تنقسم خزائن بيت المال عند ملوك سنغاي إلى نوعين:

-خزانة للمال والأمتعة، وخزانة للكتب[3].

- خزانة المال: وهي تمثل بيت المال وتحتوي على الذهب والفضة، والخيول، والعمائم، والسيوف. وما يؤكد ذلك أن السلطان أسكيا إسحاق عندما عزله أسكيا محمد كاغ، أخذ من بيت المال الذهـب والفضة ونحوها، وفرَّ بها خارج كاغ[4].

---

(1) محمودكعت، المصدر السابق، ص ص11 ـ12 .

(2) نفسه والصفحة.

(3) نفسه، ص 94 .

(4) نفسه، ص 153.

وقد اختصت دار الخطيب، عند بعض ملوك سنغاي بالتخزين نظراً للثقة العالية، التي يتمتع بها صاحبها، فعند رحلة حج أسكيا الحاج محمد، أخذ من دار الخطيب عمر الذهب، الذي كان قد خزنه عنده (شيء عال)، كما كان بعض الذهب يخزن في الحفر والتوابيت[1].

أما ممتلكات السلطان، من ذهب، ونقود، وفضة.. فقد كانت توضع في أماكن خاصة، ويشرف عليها أحد من عبيده المخصيين المقربين إليه[2].

أما خزانة الكتب، فتوضع فيها الكتب النفيسة، ويكون عليها خازن من أهل العلم والمعرفة[3].

طريقة خروجهم للغزو :

يسبق خروج سلاطين سنغاي للحرب عيونهم، ليرصدوا عدوهم، ويتعرفوا أماكن ضعفه، وتحركاته قبل الاصطدام به، وكان لأسكيا محمد بان عيون من الفرسان بلغ عددهم مائة فارس، لرصد تحركات أخيه بلمع الصادق الزاحف عليه من مدينة تنبكت[4].

وحكام سنغاي عند خروجهم للحرب تصحبهم زوجاتهم وأولادهم[5]، ويبدو أن ذلك راجع إلى أن المرأة تحمس الرجل، ويعتبر نفسه يدافع عن زوجته وأخته، وإذا ما انهزم أو تراجع، أصبحت زوجته عبدة لعدوه، وبذلك يتفانى في الدفاع.

وقد قال السعدي في هذا المضمار : «وفي هذا الطريق حملت بابنه هارون الرشيد أمه وأخوه الكبير (فارى منذ محمد بنكن) بن أسكيا داوود هو صاحب

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 65.

(2) - نفس، ص144 ، وحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2 ، ص166.

(3) - مجهول، حديقة البستان في تاريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 10.

(4) - محمود كعت، المصدر السابق، ص131.

(5) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص110.

هذا الغزو»[1] وولد لأسكيا الحاج محمد عند خروجه من غزوه (زلن) ولد بقرية (تتفرن) سماه عثمان تتفرن[2].

ومن المرافقين للسطان، نسوة من الحداديات الزمارات، اللاتي كن يحملن على الإبل ويعتبرن من نفائسهم، إضافة لذلك الخياطين الذين يقومون بخياطة القمصان والقفاطين للجيش[3].

كما يخرج مع السلطان عند مقابلته لضيف، أو زائر هام أرباب البوق، والطبول، وآلات الطرب، عازفين بأهازيج الفرح، كتعبير عن فرحة السلطان، وترحيبه بضيفه : كما يستخدم أيضاً ضرب الطبل، والعزف على البوق، كوسيلة إعلامية لعزل السلطان أحد ولاته من الحكم[4].

وفي الحالة الأخيرة تكون قيادة الموكب للملك، وهو الآمر والناهي، ويختص بخدمته غلامان مخصيان، ينصبان خيامه ويحضران طعامه[5].

ولكن ما الفلسفة وراء هذه الهالة؟

في الحقيقة إن هذه الهالة التي اعتادها ملوك سنغاي، القصد منها إظهار قوتهم أمام عدوهم، ونشر الرعب على المناطق التي يمر بها الركب، وهي بمثابة إنذار، لمن توسوس له نفسه المساس بأمن المملكة، إضافة إلى ذلك التفاني في الدفاع عن هذه المكتسبات التي يحملونها؛ لأنها في حالة هزيمتهم تصبح كل المتاع ملكاً لغيرهم بما فيهم نساؤهم .

هذا عن مملكة سنغاي، وتنظيمها الإداري، والتي هي إحدى قوى السودان الغربي وأبرزها.

---

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص ص 109 ـ 110 .

(2) - نفسه، ص75.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص131.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص104ـ105ـ119.

(5) - محمود كعت، المصدر السابق، ص131.

أما عن القوى الأخرى، والتي كانت تشكل ثقلاً في السودان الغربي، فهناك ثلاث قبائل، كان لها دور كبير في استقرار المنطقة، أو زعزعتها، وهي: البرابيش، والفلان، والطوارق، بالإضافة الى مملكة الموسي، وقوة المغاربة.

أما عن أعداد الجيش.. فقد عرفت منطقة السودان الغربي الجيش وأهميته منذ قيام أول إمبراطورية بها، وزادت في عهد مملكة مالي الإسلامية ، وحظى مرفق الجيش بعناية جل سلاطين البلاد، في مختلف فترات تاريخها، وقد تحدث المؤرخ القلقشندى عن عساكر الدولة في عهد السلطان موسى بن أبي بكر، فذكر أن مقدار عسكره مائة ألف نفر، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس، والبقية الباقية رجال لاخيل لهم[1].

وما كانت عليه مملكة مالي الإسلامية، من تنظيم في الجيش، وإعداده، ينسحب على مملكة سنغاي، التي زادت في تطويره، والاعتماد عليه، وقد تمتع الجيش بحظوة مرموقة في البلاد منذ تكوينه، وقد مر ذلك بمرحلتين :

الأولى في عهد الملك سني علي.

والثانية في عهد الأسكيا الحاج محمد وخلفائه .

وقبل أن نتحدث عن الجيش، في عهد الملك سني علي، علينا أن نطرح السؤال الآتي:

ما الفلسفة من وراء تكوين جيش سنغاي ودعمه، وتخصيص ميزانية له؟

الإجابة عن هذا السؤال في آخر الحديث عنه.

ففي عهد الملك سني علي، كانت أولى سياسته توسيع نطاق حكمه بتكوين جيش قوي من مختلف شرائح المجتمع السوداني، بأن اختط نظاماً جديداً للتجنيد الإجباري، على أن كل فرد قادر على حمل السلاح، يدخل الى سلك الجندية، ويعرض على الملك لكي تتم الموافقة عليه أو العكس[2].

(1) القلقشندى، المصدر السابق، ج5، ص299، وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المصدر السابق، ص42.

(2) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص64 ، وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص65.

اهتم سني علي بالجيش اهتماماً خاصاً، فتسابق أبناء السودان الغربي للانخراط فيه، نظراً لمكانته وكثرة الغنائم التي يتحصلون عليها في الغزوات؛ ولذا لم يجد الملك سني علي مشاكل في توفيره. وقد اختار له قواداً من أقاربه الموالين له، وكان على رأسه ابنه أبو بكر داعو، وابن خالته أبو بكر التوري (أسكيا الحاج محمد) كما كان من بين قواده المختار محمد بن نض[1].

أما في عهد أسكيا الحاج محمد، وبعض خلفائه، فقد تطور الجيش، وأصبح أكثر تنظيماً، وثباتاً، واستمر التجنيد الإجباري ساري المفعول، إلى آخر سلاطينهم . واعتبر الأسكيا الحاج محمد القائد الأعلى للجيش، فضلاً عن أنه رئيس السلطة المدنية، فهو رئيس للسلطة العسكرية أيضاً. وقد أوضح الأسكيا محمد الحدود بين الوظيفة المدنية والعسكرية، حينما قال: «. . . وميز الأسكيا الأول الخلق بعدما كان الكل في أيام الخارجي جندياً بين الرعية والجند»[2] وفي حالة الحروب والأخطار التي تمر بها المملكة، كان الحاكم يجمع القواد والمستشارين لأخذ رأيهم، في دفع الخطر، ويقول السعدي في هذا المضمار : «جمع . . . قيادة وكبراء مملكته في المشاورة في الرأي والتدبير»[3].

لقد نظم أسكيا الحاج محمدالجيش تنظيماً جديداً، بأن قسمه لعدة فرق حسب الأسلحة التي كان يستعملها، وهذه الفرق هي:

1- فرقة المشاة :

وهي الفرقة الراجلة، وتعتبر من أقوى الفرق، وأساس الجيش، وتتميز بكثرة عددها وعدتها، وكانت تتقدم الصفوف عن الفرق الأخرى[4].

---

(1) -أحمد بن بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 11.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 72.

(3) - نفسه، ص139.

(4) - زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص66.

2 - فرقة الفرسان :

تأتي في المرتبة الثانية في العدد، والترتيب، والأهمية، ويقاتلون على ظهور الخيل، والمهاري، وفي عهد (أسكيا محمد بان) بلغ عددها أربعة آلاف وستمائة فارس[1] .

3- فرقة سلاح «الخيالة»

هذه الفرقة صغيرة العدد، وينخرط فيها أفراد الطبقة النبيلة، ويسند إليها أمر المشورة، وتكون قريبة من القيادة[2].

4 - فرقة الطوارق :

اعتمد حكام سنغاي على فرقة خاصة من الطوارق، وهم الذين سيرد الحديث عليهم فيما بعد، من أصلب الأجناس قوة ومهارة في الحروب، ولذلك، اعتمد عليهم في المهام الصعبة. وقد بعثهم أسكيا داوود إلى أراضي المغرب، عندما تعرض لتهديد سلطان مراكش، بقصد إظهار قوة سنغاي[3].

5- فرقة العبيد :

انخرطت طبقة العبيد في الجندية، وكان منهم ضباطاً أكثر ولاء من غيرهم[4].

وقد كانت أسلحة جيش مملكة سنغاي، تتمثل في الرماح، والسيوف، والنبال، والنشاب، والتروس الكبيرة، المصنوعة من جلد الغزال[5].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 137 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص120، وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص68.

(2) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، ورقة 14 زبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص67.68.

(3) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص109.

(4)- محمد محمد المفتي (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 106، والشيخ عبد الرحمن عبد الله، المرجع السابق، ص75.

(5) - لامن بن أحمد كنو، تاريخ أقدز، مخطوط، ورقة 11 ، وموسى أحمد السعدي ورقة 10، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص176.

كما كانت من أدوات الحرب السهام المسمومة، والقوس الذي يصنع من جذوع شجر البسباس البري[1]، والقسى المصنوعة من خشب الفنوى البري، تمرق منه سهام مسمومة[2]، إضافة إلى ذلك كان لديهم سلاح الحرشان الصغار، ويستخدمه الملوك، وأبناؤهم كسلاح شخصي،[3] ولديهم سلاح المنجل، فقد قطع (فكومكي) رأس (شاع فرم) وقدمه لأسكيا بنكن[4]، وقد انفرد صاحب مخطوطة تراجم علماء باغرم عن غيره فذكر، بأن هناك نوعاً من السلاح في عهد مملكة سنغاي يعرف (بالسنان)[5] يشبه الرمح، وقد استخدمه أهل السودان الغربي عام 1001هـ/ 1592م، وكان أول المستخدمين، والمصنعين له الشيخ (الوالي ابـن الجرمي التاركي)[6]، كما انفرد محمد محمد المفتى مرحبا بإيـراد معلومة، مفادها أن من بين أسلحة مملكة سنغاي البنادق[7].

وحسب وجهة نظري. . فإن أهالي سنغاي، لم يعرفوا الأسلحة النارية، إلا بعد مجيء المغاربة إلى هناك، وربما استخدم جيش سنغاي الأسلحة النارية، بعد أن تحصلوا عليها من المغاربة.

كما اعتبر الطبل نوعاً من الأسلحة المهمة والمؤثرة، فهو يمثل الحرب الإعلامية، ومهمته حشد الهمم، وقد استخدم منذ زمن سني علي، واستخدمه شي بار بن سني علي، في حربه مع أسكيا محمد، واستخدمه أسكيا محمد في

(1) - مارمول، كرنجال، أفريقيا، المصدر السابق، ج 3 ص203.

(2) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص !!

(3) - محمود كعت، المصدر السابق ص 102، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص86 الناصري، الاستقصاء المصدر السابق، ج 5 ، ص122.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 87 .

(5) - سألت عن هذا النوع من السلاح البدائي عند أهل السودان الغربي، وأفادوني بأن هذا الرمح عادة مايكون قصيرًا، طوله حوالي متر أو يزيد، وفي راسه، وعلى جوانبه، تركب فيه رؤوس من الحديد قصيرة، فإذا ما أصاب فريسته فإنه يؤثر فيها.

(6) - مجهول ، تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 4.

(7) - محمد محمد مرحبا ، التاريخ الخاص بالتوتر، مخطوط، ورقة 52.

حربه مع شي بار. كما استخدمت الدفوف في حشد الهمم، وما يؤكد ذلك أن مجموعة من فرسان أسكيا إسحاق، استعملت الدفوف في مطاردتهم لبلمع الصادق في منطقة (كيم)[1] .

لقد استخدم جيش سنغاي، في تحركاته فرقة الفرسان، التي تمتطي الخيول المسرجة، والخيل عندهم نوعان : نوع يطلق عليه (بَرّ)، والثاني (الحمدية)[2].

ويبدو أن لكل نوع من هذه الأنواع خاصية يمتاز بها عن الآخر، فأحدهما سريعا العدو، والآخر يتحمل الثقل.

ومن بين الحيوانات التي استخدمت في القتال، علي الرغم من ثبوت فشلها البقر، وقد دفع أسكيا إسحاق بألف بقرة في وجه جيش جودر، لكي يجعل منها ستارًا بينه وبين خصمه[3] .

أما عن زى الجيش فقد كان الفرسان يرتدون العمائم السود، ويتحزمون على قفاطين سود ويمتطون الجياد، ومنهم من يلبس البرانيس، فأبناء محمد بنكي كانوا يرتدونها[4] .

تقودنا هذه المعلومة، إلى أن هذا اللباس، أخذ عن المغاربة والليبيين، وبذلك كان تأثيرهم قوياً في منطقة السودان الغربي.

أما لباس العمائم السود، فهو شعار العباسيين، فتأثروا بالخلافة العباسية خاصة زمن أسكيا الحاج محمد، الذي توجه أمير مكة خليفته في أرض السودان.

كما يرتدي الجندي المغفر على الرأس، وهي عادة ما تكون من الحديد، مثل الخوذة العسكرية اليوم، إضافة إلى ذلك يلبس الدرع المصنوع من الحديد، ليحميه من ضربات السيوف، وطعنات الرماح[5] .

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق ، ص49ـ 54ـ 55ـ 131ـ138.

(2) - نفسه، ص49.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص147 ـ148.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 116.

(5) - مجهول، حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 15، وعبد الرحمن السعدي، ص ص119-128.

أما لباس القادة، فيختلف عن عامة الجنود والضباط، فكان الزي العسكري لبلمع محمد الصادق بن أسكيا داوود درعاً حديدياً، وهو شعاره وفوقه قميصٌ سوسي أخضر، وشار وسيفاه في عنقه وحزامه في وسطه (وخرجان)[1] يوضع على الرقبة[2].

تنظيم الجيش و تموينه :

كان الجيش مقسماً إلى كتائب عسكرية، وما يؤكد ذلك أن أسكيا إسحاق عند مطاردته لبلمع محمد الصادق ، كانت هناك كتيبة من الطوارق تطارده[3]، كما كان عندهم نظام الراية، وقد بعث (هيكي) علي دادُ إلى كشن سرية زمن أسكيا داوود[4].

أما عن عدد الجيش فيختلف من منطقة لأخرى، فقد كان جيش ملك ونكارة وحده عشرة آلاف من النبالة والمشاة، وستمائة من الفرسان الأجانب، وبهذا الجيش استطاع المحافظة على استقلاله[5].

وكان لهذا الجيش تنظيم داخلي يختلف من منطقة لأخرى، ففي بلدة (سبردُك) كان جيشها له نظام خاص، فملكها له قائدان صاحب اليمين يدعى (سنفرزومع)، وصاحب الشمال يسمى (فرن سُرا)، وتحت إمرة كل واحد منهم عدد من القادة والجيش[6] واعتمد هذا الجيش، على السرية في كل تحركاته؛ حتى لا تتسرب أخبار وجهته، ولكي يباغت خصمه[7]، كما كان قادة الجيش، يرسلون الجواسيس[8] لمعرفة أماكن ضعف العدو، قبل الشروع في الهجوم عليه.

---

(1) - يصنع من صوف الاغنام ويزركش، وهو عبارة عن فتحتين، يوضع على العنق أو فوق الدابة، يستخدم في حمل الحرشان ونحوهم .

(2) - محمود كعت، المصدر السابق، ص128.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص127.

(4) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 103.

(5) - مارمول، المصدر السابق، ج2 ، ص209.

(6) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص11.

(7) - نفسه، ص107.

(8) - محمود كعت، ص131.

وكان الذي يقوم برسم الخطط السلطان، والقادة، وتوضع الخطة حسب طبيعة المعركة، ففي عهد السلطان أسكيا إسحاق كانت خطته العسكرية التي واجه بها جيش جودر باشا، بأن دفع بألف بقرة باتجاه خصمه، حتى يجعل منهم ستاراً، وحشد ثمانية عشر ألف فارس، ومعه من خيرة قواده (بنكفرم) و(كنفار) و(بلمع)، كما كانت تصحبه فرقة، تتألف من تسعة وتسعين شخصًا تعرف (بالسُونه)، والفرقة لا تغادر موقعها، مهما كانت الظروف، أما إن تهزم العدو أو تنتهي[1].

هذه الفرقة تعرف في التنظيم العسكري اليوم، بالفرقة الانتحارية، ويكون الدخول إليها بالرغبة، ويدخلها من عرف بالشجاعة وقوة الجأش ، والإقدام، أما بخصوص عددها فلم يكن من محض الصدفة حسب وجهة نظري، فقد وضعت على عدد أسماء الله الحسنى، وهذا نوع من التبرك وتأثير الدين الإسلامي عليهم، وقد ورد أن كل فرد من هؤلاء لابد ان يكون على درجة من التقوى[2].

ومن عادة جيش سنغاي عند خروجه للغزو أن تسدى له النصائح من قواده قبل خروجه لساحة المعركة، فعند خروج جيش كرمن فاري بن أسكيا داوود لحرب أهل (جبل دُم) أسدى النصائح للقائد (هك كرى كُرى ياسى)، بأن لايدخل بجيشه في خطر، وأكد عليه بتطبيق الأوامر[3].

ومن خلال هذا النص نلمس بأن سلاطين وقادة جيش سنغاي يحاولون السير على نهج قادة الإسلام العظام، وعلى رأسهم سيد الكائنات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عندما كانوا يأمرون بعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ وعدم الإفساد في الأرض.

ومن تنظيمهم العسكري، أن لكل مدينة حارساً لها، يتحسس أماكن الخطر،

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص ص147 -148.

(2) - الهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، من خلال الرواية الشفوية مرقون، تحت الطبع ورقة 70.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص112

وإذا ما شعر بخطر سوف يداهمها. . فإنه يرسل إلى مركز القيادة، يشعره بالأمر، وكان لمدينة تنبكت حارسها أحمد بن عبد الله الودادي، الذي أرسل إلى البكاي يعلمه بالخطر الداهم، الذي سوف تتعرض إليه تنبكت، ويطلب منه المدد، وهذه مقتطفات من الرسالة.

«وأنه من أحمد بن عبد الله الودادي إلى الفارس المبيد والبطل الصنديد السيد سيدي كخالد بن الوليد. بعد السلام التام والتحية والإكرام، موجبه يا سيدي طال تشوق أهل تنبكت إلى أن يأتي من جهتهم، من إغاثة بجيش جرار، يقوده كل بطل كرار، حتى يهشم كل دجال هناك من الطوارق وغيرهم، ويكذبون من تشتيت الدجاجلة خالي اللب، وغيره يقولون لو كان سيدي وجد مراده هناك، لما يترك خبز تنبكت الحار مع عسله ودهنه. . . ولكن هو في الحرب إلى الآن، وأهلك الذين في أزواد، والذين في تنبكت كلهم ينتظرون الفرج من جهتك بدخول جيش في تنبكت، وتسهيل الطرقين في البحر والبر، ولا يشغلك عن هذا شاغل، وهو الأهم أن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره أرذلها وسفاسفها، وأنت جعلك الله مفتاحاً لهذا الأمر ببركة آبائك الكرام، حين فتح الله عليك بفتح تلك الجهة، فوجه همتك إلى هذه الجهة تنفتح ببركتكم، لأنك جعلك الله منصوراً مشكوراً مظفوراً مجبوراً، بعض يرحبك وبعض يرغبك . . . . إلخ»[1].

نستخلص من النص السابق عدة معطيات :

1- الديباجة التي تكتب بها رسائل المدد العسكري، وهي تبدأ بالتبجيل والتفخيم.

2 - الأسلوب التي تكتب به، وعادة ما يتخللها السجع: جيش جرار. . . بطل كرار. . . إلخ، وكذلك الخط التي كتبت به الخط المغربي.

---

(1) أحمد بن عبد الله الوداوي، يبعث برسالة إلى البكاي، يذكره بأمر إرسال جيش إلى تنبكت، مخطوط ، المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 660 ، ورقة واحدة .

3 - تعرفنا على أن الطوارق وغيرهم من القبائل، كانوا يثيرون القلاقل، في محاولة منهم السيطرة على تنبكت وأزواد.

4 - تعرفنا الرسالة على مكونات غذاء أهل تنبكت.

5 - أنواع الجيش في منطقة السودان الغربي برى وبحري.

6 - حالة الخوف التي تسيطر على صاحب الرسالة، نتيجة للأوضاع التي تمر بها المدينة، ومحاولة الضغط على البكاي بإرسال جيش، عندما يذكره بأن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره أرذلها وسفاسفها، ويخاطبه لدر العواطف بأن الله جعله مفتاحاً لهذا الأمر ببركة آبائه الكرماء.

7- كما تُبين لنا كيف أن منطقة السودان الغربي متصلة ببعضها، البعض فإذا ما تعرضت منطقة ما لأي خطر، سارت إليها الجيوش من منطقة أخرى لنجدتها.

أما بالنسبة للتموين.. فقد أورد كعت أن مصلحة التموين، كانت معدومة لدى جيش سنغاي، وأن القبائل التي يمر بها الجيش هي التي تتكفل بتزويده بالمؤن.

وعلى الرغم من أن المؤرخ محمود كعت من أبناء منطقة السودان الغربي، ومن معاصرى الفترة التي نكتب عنها، إلا أن الباحث لا يرى تحرجًا من الإدلاء بوجهة نظره وفق المصادر المخطوطة التي سبقت كعت، ووفق كتاب كعت ووفق المنطق العلمي.

يقول مخطوط نبذة من تاريخ جني: إن سني علي حاصر جني فترة من الزمن تصل إلى سنة كاملة، ويورد عبد الرحمان السعدي أنه حاصرها سنة وستة أشهر، وكعت يورد نحو ذلك.

والسؤال المطروح هو:

من الذي كان يمول الجيش؟ هل أهالي مدينة جني المحاصرين، الذين أغلقوا

الأبواب في وجه جيش سني علي؟ أم القبائل التي تزودهم؟ وكيف تمول قبائل جيش جرار، قدرت حمولته بأربعمائة سفينة؟ فالقبائل لا تستطيع تمويل المسافة بين جاو العاصمة، ومدينة تنبكت، والتي تبلغ خمسمائة كم مربع، والتي قطعتها سيارتي في يومين كاملين، لم نر فى ثمانين في المائة منها إنساناً، فما بالك بمن يسير على قدميه أو على جواد في جيش جرار؟ فكم يستغرق من الزمن حتى يصل إلى هدفه، بتموين من القبائل التي لم تكن موجودة أصلاً؟

في الحقيقة لابد أن يكون هناك في الجيش جهاز خاص بالتموين، وقد تصاحب الجيش مجموعة من الإبل، تحمل الزاد والماء، وهذا يعتبر من الإستراتيجية العسكرية التي لايغفلها قائد ناجح قط.

كانت البلاد تتمتع بأسطول بحري منذ زمن الملك سني علي، وهو أول من وضع النواة الأولى للأسطول البحري، فشرع في صناعة السفن، وقد استخدمها في حصاره لمدينة جني، حيث طوقها بأربعمائة قارب، وكان يحكمها آنذاك الملك (جنكي كنبر)[1]، وكانت تستخدم السفن والقوارب في نقل الجنود والعتاد الحربي، عبر نهر النيجر، وروافده لمختلف مراكز الجيش[2]، وكانت أغلبية الأسلحة تتمثل في النبال والحراب ؛ وتمتاز سفنهم بطولها، ولكنها ليست عريضة، وأغلب أفراد هذا الأسطول يتكون من العبيد، فهم الذين يقومون بعملية التجديف، وخدمة الجيش الذي على ظهر السفن[3].

لقد ظل الأسطول دعماً قوياً لقدرات جيش سنغاي الحربية، ويرجع الفضل إلى النظام، الذي اتبعه الأسكيا الحاج محمد بالنسبة إلى تقسيم أسلحة الجيش،

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص50، وأحمد فؤاد بليغ، «عبد الرحمان السعدي، عصره وكتابه» المجلة التاريخية المصرية ، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة 1973م، ع20 ، ص90.

(2) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص82.

(3) - محمد محمد المفتي (مرحبا) فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 150 وزبادية، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص ص70-105.

وقيام كل قسم باختصاصه على أكمل وجه، حيث كانت هذه الأقسام مكملة لبعضها البعض، وقد أثبت جيش سنغاي، جدارته عند خروجه في الغزوات والحروب، ورجوعه منتصراً مظفراً في أغلبها.

لقب أمير المؤمنين، ودوره فى مخطط أسكيا الحاج محمد التوسعي:

لقد عاد أسكيا الحاج محمد من رحلة الحج متوجاً بلقب أمير المؤمنين، وأعطته هذه الميزة هيبة، ودفعاً قوياً، إلى توسيع رقعة بلاده وتأديب الخارجين على نطاق حكمه، والرفع من ميزانية مملكته، وضمه عدداً من المناطق بالقوة.

وكانت له غزوات، وهي :

1- مدينة كاغ:

دخل الأسكيا محمد في ذي الحجة مكمل السنة بلاد كاغ، بجيشه الذي أعده الإعداد الجيد، وانتصر على خصمه، وفتح الله عليه من أرض كنت إلى البحر المالح [يقصد به المحيط الأطلسي] في الغرب وما جاورهم من أراضي بندك إلى تغاز منجم الملح، والمعدن الإستراتيجي وما جاورها، وقد اتفق موسى بن أحمد السعدي، وعبدالرحمان السعدي على أن أسكيا محمد فتح هذه المناطق، بحد السيف، فقد ذكر موسى بن أحمد السعدي مانصه : «فطوع الجميع بالسيف والقهر»[1].

من خلال النص السابق أستبعد ما قيل في حق أسكيا الحاج محمد، من أنه غزا كاغ، وباقي المناطق المجاورة لها بحد السيف، دون أن يفاوضهم بأن يبعث رسله إليهم، وهذا كلام مردود على أصحابه، فأسكيا الحاج محمد بعث برسله، وهو في أحلك ظروفه بأن أرسل لاشي بار بن سني علي من يفاوضه، وكان آخرهم محمود كعت. فهل يعقل أن يفتح هذه البلدان، دون أن يفاوض أهلها؟ فالحرب آخر ورقة يلعب بها، وهذا من مميزات القائد الناجح، مهما كانت قواته.

(1) - موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 110.

2- غزوة زنفري :

غزا ملك زنفري، وسيطر على أراضيه، وضمها إلى ممتلكاته[1].

3- خروجه إلي (مملكة الموسي)[2]:

في السنة الرابعة 904هـ/ 1498م خرج أسكيا الحاج محمد ومعه جمعٌ من العلماء من بينهم الفقيه الفا صالح جور، الذي يعتقد فيه إسكيا محمد أيما اعتقاد، وأورد السعدي أن ألفا صالح طلب من أسكيا محمد، ان تكون هذه الغزوة جهاداً في سبيل الله ! . وبذلك عليه أن يطبق كافة أحكام الجهاد، فأذعن أسكيا محمد وأرسله إلى خصمه، وعندما وصل ألفا صالح إلى ملك موسى، وعرض عليه الإسلام، طلب ملك موسى من رسول أسكيا محمد أن يستشير الإله، فأشار عليه الإله بالحرب، وبذلك لم يجد أسكيا الحاج محمد بدًّا من إعلان الحرب على ملك موسى، وانتصر عليه ودانت له بلادهم، وسبا نساءهم ورجالهم، ودخلوا السباية في الإسلام، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك[3].

ويستوجب النص السابق طرح السؤال التالي :

- هل يعتبر أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد غزواته، ضد ملك الموسى جهادًا وباقي فتوحاته ليست جهادا؟

لا أعتقد أن ما أورده عبد الرحمان السعدي من أن الفقيه ألفا صالح، طلب من أسكيا الحاج محمد، أن يعتبر غزوه للملك الموسى جهاداً، ويطبق عليه

---

(1) - الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص174.

(2) - مملكة الموسي مملكة وثنية، تقع على منحنى نهر النيجر، عرفت بقوتها واستراتيجيتها، عاشت في فترة ممالك السودان الغربي غانا ومالي وسنغاي.

(3) - أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة، ص9، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ص74،وعبد الرحمان زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، المرجع السابق، ص139.

أحكام الجهاد، وهذا على ما يبدو مغالطة تاريخية؛ فأسكيا محمد يعتبر كل فتوحاته جهاداً من أجل نشر الإسلام؛ وخاصة بعد عودته من الحج، وحصوله على لقب أمير المؤمنين، وفعلاً نعتبرها جهادا لأن أغلبها ضد الوثنية، التي كانت منتشرة في المنطقة.

غزوه لإقليم مالى :

جرد أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، جيشاً إلى إقليم مالي، حيث بدأ التدخل من بلده (تندرم) التي تقع على الحدود الشمالية للملكة، وانتصر عليها، وكان ذلك في السنة الخامسة، حيث قتل زعيميها : باغن فاري عثمان، ودنب دنب الفلاني[1].

وفي السنة السادسة غزا بلدة (اير) (ايورد)، وانتصر عليها وفر حاكمها محمد بن تلظ؛ وقد أورد آمن بن بوعتو، الذي انفرد بهذه المعلومة على حد علمي دون غيره: من أن أسكيا الحاج محمد عندما غزا (اير) لأول مرة، كان بها أبو بكر داعو سني علي مع أنصاره، إلا أن جيش أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد، لم يلق أي مقاومة تذكر من أبي بكر داعو وأنصاره، وربما كانوا قليلين جداً، حيث استطاع جيش الأمير أسكيا الحاج محمد اجتياح عاصمة مالي نفسها[2].

وفي هذا الشأن يذهب طرخان إلى أن عاصمة مملكة مالي السابقة، خربت أكثر من مرة[3].

وفي السنة السابعة كون لأخيه عمر جيشاً، وبعثه إلى زلن على أمل فتحها، إلا أن سلطان (كلي) كان على درجة من الاستعداد والقوة فانتصر على عمر، وكاد أن يفني أتباعه؛ فأرسل عمر على الفور إلى أخيه أسكيا الحاج محمد يعلمه بأن النصر كان حليف خصمه، ويطلب منه المدد؛ فجرد أسكيا الحاج محمد

---

(1) - عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص74.

(2) - الحاج آمن بن يوعتو ، جوامع التواريخ مخطوط، ورقة 8 .

(3) - طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص117

جيشاً وسار به نحو زلن لمساندة عمر، ونزل بجيشه في بلدة (تنفرن)، ونازل سلطان مالي وانتصر عليه، وفي هذه المعركة كان أمير المؤمنين معه زوجته أم موسى؛ فولدت له في تنفرن موسى ولقب بتنفرن[1].

بعد ذلك تحرك إلى كشنه وزلن، وخربها، ودمر مقر الأسرة الحاكمة وأسرها. وفي هذا الصدد يقول عبد الرحمان السعدي : «بعث أخاه عمر كمزاغ إلى زلن ليقاتل (فتى قليّ) قائد سلطانِ مالي، الذي على البلد، فامتنع منه ما نال منه نيلاً فأرسل الخبر للأمير أسكيا . . . فجاء الأمير بنفسه فقاتله وغلبه، وخرب البلد، ورفع دار سلطان ملى وسبا أهله . . . . . فتأخر هنالك حتى أصلح البلد، ووضعه على غير وضعه الأول، ثم رجع»[2].

ونطرح سؤالاً من شقين:

أ - ما الذي دفع أسكيا الحاج محمد إلى تجريد حملة عسكرية لهذه المناطق، التي تدين بالإسلام، منذ أمد بعيد، وهي من ضمن أملاك مملكة مالي الإسلامية سابقاً !؟

ب - ما المغزى من وراء حمل أسكيا الحاج محمد زوجته معه لهذه المعركة، وهي على أبواب الوضع؟ .

للإجابة عن الشق الأول من هذا السؤال، نورد الآتي :

إن حركة التوسع الذي اتخذها أسكيا الحاج محمد، تحت ستار الدين في الحقيقة لم يكن الدين هو النقطة الرئيسية فيها، بل كان المخطط السياسي الأهم في هذه العملية. وحاول الأسكيا البحث عن مبرر شرعي لمثل هذه العمليات،

---

(1) عبد الرحمان السعدي ،المصدر السابق ، ص ص74-75، وحسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، المرجع السابق، ص227، وعبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا، المرجع السابق ص63.

(2) عبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص75، والحاج آمن بن بوعتر، جوامع التواريخ، مخطوط، ورقة ص2.

ووجد في العالم المغيلي ضالته للمرة الثانية، وهو خير معين له، عندما سأله عن «بعض المسلمين في شرقنا وغربنا سمعوا بي، وطلبو أن يدخلوا تحت طاعتي، فهل لي أن أجيبهم إلى ذلك؟ أو نقف على حكم بلادنا، التي أورثنا الله عن سني علي؟»[1].

فأجابه المغيلي بالإباحة له قائلاً : «ليس من المنكر قتل الظلمة، والمفسدين وأعوانهم، ولو كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون فقاتلوهم، ولو قتلوا منكم كثيراً، وقتلتم منهم كثيراً»[2].

لقد سمح المغيلي لنفسه بهذه الفتوى، دون أن يتأكد من ظلمهم وفسادهم أو من صحة دينهم. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يسمح المغيلي لنفسه بالإقامة بينهم لمدة تزيد عن سنة؟ بالتأكيد هذه السنة كفيلة للمغيلي، أن يعرفهم تمام المعرفة هل هم على الإسلام أم الكفر! وكيف يعقل أن يسكن عالم على درجة من العلم، والورع والتقوى، بين شعب ضال يحل جهاده ! ويسكت عن ذلك طيلة هذه الفترة، إلى أن يسأله الأسكيا؛ فيجيبه الإجابة التي ترضي الأسكيا؟ ليس هذا بغريب على المغيلي، الذي سخر أمهات أفكاره، وجر قلمه في مزالق واهية، لتحقيق مآرب أسكيا الحاج محمد، عندما أفتى فتوته الأولى، في حق سني علي وأتباعه بقوله : «إن سني علي وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره لاشك، أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، الذين يقطعون ما أمر الله....»[3].

ونسي أو تناسى أن أسكيا الحاج محمد، كان الرجل الثاني في دولة سني علي، إذًا أسكيا كان من ضمن الفاسقين الظالمين.

وليس لي ما أقوله عن المغيلي إلا أنه تحالف بين العلماء، والحكام، من أجل تحقيق مآرب دنيوية.

---

(1) المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق ص 51.

(2) نفسه والصفحة .

(3) المغيلي، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي، المصدر السابق، ص39.

وللإجابة عن الشق الثاني من السؤال السابق، نورد الآتي:

تعتبر هذه المعركة أول هزيمة يقع فيها قادة أسكيا الحاج محمد، أثرت بشكل أو بآخر على نفسيته، ونفسية قادته وجنوده، وحتى يرفع الروح المعنوية ، ويؤكد للقادة أن رياح النصر أكيدة في هذه الجولة، حمل معه زوجته، وهذا نوع من رفع الروح المعنوية؛ وليؤكد لهم أنه لا مفر من الانتصار عليهم، فهم يدافعون عن إعلاء كلمة الله أولاً، وعن نسائهم وأطفالهم ثانيًا.

بعد هذه الجولة القاسية في ساحة المعارك، والذي فقد فيها أسكيا الحاج محمد أنجب رجاله، عاد ليرتب جيوشه من جديد، فمكث من السنة الثامنة وإلى العاشرة على أمل غزو برك .

5- غزوة برك :

في السنة الحادية عشر جهز أسكيا الحاج محمد، الجيش الذي بقي بعده سنتين، وتحرك به صوب بلدة برك، وكان يرى أن فتحها أمر هين، ولكن حدث العكس؛ فوجد أسكيا الحاج محمد أن أرضها ناراً تتلظى تحت أقدامه، وتجرع فيها كأس الهزيمة الذي لم يتجرعه من قبل، ونهبت جارية زاركن بنكي أم موسى بن الأسكيا، ومات خيرة رجالات الأسكيا، وقد تأثر عمر شقيق الأسكيا لهذا الموقف، وعاتبه الأسكيا على الوضع الذي هم فيه، ورد عليه الأسكيا بروح القائد، الذي لا تؤثر فيه الصعاب بقوله: «وهل ترضى أن يعيش معنا هؤلاء[1]»؟ وفعلاً فإن أسكيا محق في كلامه، فبرك كانت على الوثنية، وهي من أرفع القبائل[2].

المهم في آخر المعركة تغيرت المعطيات، وانتصر أسكيا الحاج محمد، بعد أن فقد جزءاً من جيشه[3].

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص ص69 ـ70.

(2) -مجهول، نبذة من تاريخ جني، مُخطوط، ورقة 21 .

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77.

نطرح سؤالاً وهو : ماهي أسباب الهزيمة التي مني بها أسكيا الحاج محمد ؟

على الرغم من أن المعطيات كلها تؤكد النصر المؤزر لأسكيا الحاج محمد وقواته، إلا أن أسباب الهزيمة تعود إلى ما يلي :

أـ أن جيشه قبل هذه المعركة كان في فترة إعداد وترتيب.

ب ـ أن بلدة برك ليست بالمدينة الكبيرة، والجيش كثير العدد حتى يتسنى له الوقوف أمام جيش أسكيا الحاج محمد.

ج ـ أهم نقطة في النصر هي أن سكان برك بالكامل تحولوا إلى مقاتلين، وبذلك كان النصر حليفهم، فالشعب المسلح غير قابل للهزيمة والتجويع .

د ـ أن جزءاً كبيراً من جيش أسكيا الحاج محمد كانت تنقصه الروح المعنوية .

هـ ـ عدم تجانس جيشه فهو مزيج من الطوارق، والبنبارة، والفلان، وسنغاي، وبذلك كانت روح الألفة والتفاني في القتال منعدمة .

بعد هذه الغزوة، رجع أسكيا الحاج محمد، إلى العاصمة، وهو منهك القوى مكسور الخاطر، مشتت الأفكار، وأول عمل أقدم عليه هو إعادة بناء قواته، بعد أن فقد أفضل ما عنده من الرجال، وقد استغرق ذلك العمل سنة كاملة.

6 - جيش أسكيا محمد يدخل كلنيوت ملى :

تحرك جيش أسكيا الحاج محمد صوب بلدة ملى، وكان ذلك في السنة الثالثة عشر وانتصر عليها. إلا أن شبح هول الحرب السابقة كان لايزال في مخيلته، فتوقف عن الجهاد من الستة الرابعة عشر حتى نهاية السنة السادسة عشرة، وهي فترة ثلاث سنوات، ويبدو أنه شعر بأن جيشه ما زال يعاني من مشاكل داخلية، وأنه لم يضع النقاط على الحروف بالاستفادة من الأخطاء السابقة .

7 - بلدة باغن فرن:

دخل جيش أسكيا الحاج محمد بلدة باغن فرن، في السنة السابعة عشر بعد

ثلاث سنوات من الراحة، وكان على رأس جيشه (كُرى كي) وعلى فلن وبلمع محمد كرى، يقودهم(فتُ كيتا)، وقد دخلوها سلماً[1].

8 - غزوة لازار :

كان سبب غزو أسكيا الحاج محمد (لازار) أنه خرج من هذه المنطقة من يدعي النبوة، وهو اللعين (تنيض)، فقصده أسكيا الحاج محمد بجيشه في السنة الثامنة عشر (بفوتا)، وقتله في أزار، وكان ابن اللعين خارج البلدة وعندما سمع بمقتل أبيه، فر مع من معه من جنده إلى فوت، وسكن بها[2].

9 - غزوة أقدز :

كانت أقدز تمثل مركزاً حضارياً واقتصادياً، تأسست في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وازدادت أهميتها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بأن ارتادها عدد كبير من التجار[3].

وقد جرد إليها أسكيا الحاج محمد جيشاً، ودخلها بمساعدة سلطان ليك (كت)، وقد انتصر عليها، ودانت له، واستفاد من خيراتها، وقد غنم الكثير منها، وكان ذلك في آخر السنة الحادية والعشرين؛ وأورد السعدي أن خلافات حديثنا بين أسكيا الحاج محمد، وسلطان ليك على تقسيم الغنائم أدت إلى حرب بينهما[4].

من خلال استقراء لشخصية أسكيا الحاج محمد، فإني استبعد ما أورده السعدي، على الرغم من أنه من البيئة نفسها، وقريب من الفترة التاريخية التي نتحدث عنها، للاعتبارات الآتية :

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 56، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص77.

(2) نفسه والصفحة، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص76.

(3) مجهول. تاريخ أكدز والطوارق ،مخطوط مركز أبحاث النيجر، رقم 1600 ورقة 2، والحضارة الإسلامية في النيجر ، المرجع السابق، ص ص57 -58 .

(4) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص78.

1 - أن بلدة ليك موقعها قبل مدينة أقدز، بحوالي خمسين كم، وقد زرتها عام 1994، وهي مدينة صغيرة لا تستحق كل هذه الهالة.

2 - أن أسكيا الحاج محمد من الطبيعي أن يكون قد دخلها، ودانت له دون قتال؛ الأمر الذي جعله يطمئن إلى قائدها وجيشه، ويشاركه في دخول أقدز، باعتبارهم يعرفون دروبها، فمن المستبعد أن يتمرد سلطان ليك على أسكيا الحاج محمد .

3 - وإذا ما صدقنا رواية السعدي، فلربما أن سلطان ليك انضم إلى سلطان أقدز، عندما نشبت المعركة بينه وبين أسكيا الحاج محمد؛ باعتبار أن بلدة ليك وأقدز قريبتين من بعضهما، وسكانها من أصل واحد .

10 - غزوة أسكيا الحاج محمد بلدة غوبر:

غزا أسكيا الحاج محمد بلدة غوبر، واستولى عليها، وطرد ملكها، وعين والياً عليها يتبعه، وفرض على سكانها الضرائب، وجلب معه نصف سكانها أسرى، واستخدم بعضهم كعبيد[1].

علاقة مملكة سنغاي بدولة برنو زمن أسكيا الحاج محمد :

عرفت المنطقة الواقعة شرق مضارب ديار الهوسا، وغرب دارفور في السودان الشرقي، تأسيس دولة كانم، برنو منذ حوالي القرن الرابع الهجري التاسع الميلادي، وعرفت في عصرها الأول بدولة كانم، التي بسطت نفوذها على المنطقة الواقعة جنوب كوار، وشمال شرق بحيرة تشاد، وفي القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، تحول مركز الثقل السياسي غرب بحيرة تشاد؛ أي إلى إقليم برنو، الذي كان يشمل أجزاء كبيرة من شمال نيجيريا الحالية والكمرون، وقد ظهرت مايات، برنو كقوة سياسية يحسب حسابها. وبفضل قوتها العسكرية، استطاعت السيطرة على أجزاء شاسعة من السودان الأوسط [2].

---

(1) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص171

(2) مجهول، تذكرة النسيان، مخطوط، مكتبة الباحث بدون تصنيف، ورقة 1 ـ 2 ، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، المرجع السابق، ص 84 ـ 85 .

يرجع أصول سكان برنو إلى الهجرات الأولى، التي امتدت ما بين 800 هـ/ 1250م، وكانت الهجرات قوامها العرب المغاربة والزغاوة.

وقد تعاقبت على حكم برنو عدة أسر، كان على رأسها الأسرة السيفية متمثلة في غاز السيفي 877 ـ 908هـ / 1472-1502م[1]، والذي سبقه إلى حكم البلاد (علي جاجي) 870 ـ 877 هـ/ 1465 -1472م، ومنهم من يقول إن نهايته كانت سنة 903 هـ/ 1497م[2] والفرق بين التاريخين خمس وعشرون سنة، وهي فترة طويلة، ولكن على ما يبدو أنه تولى في هذه الفترة حكامٌ ضعاف، لم يكن لهم في تاريخ المنطقة دورٌ بارزٌ.

المهم تمكن علي جاجي من توطيد أركان حكمه، إداريًّا وعسكريًّا، بأن فرض الضرائب على جل إمارات الهوسا الشرقية بما فيها كان؛ الأمر الذي ترتب عنه دخول دولة برنو في مواجهة مباشرة مع سنغاي بقيادة الأسكيا الحاج محمد. وقد كان ذلك مع أواخر القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي حتى بداية العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وكان المحرك لهذا التنافس الزعامة الروحية في منطقتي السودان الغربي والأوسط، وكذلك محاولة أسكيا السيطرة على الطرق المؤدية للشرق، وإحلال سنغاي مكانة إمبراطورية البرنو الروحية في القاهرة، والسيطرة على الثروة الحيوانية والزراعية[3]، وهناك رأيان حول حدوث حروب بين الدولتين من عدمها:

فالرأي الأول يقول إنه على رغم من التحرشات بين الجانبين، إلا أنها لم تصل إلى درجة الصدام المسلح، ومرد ذلك راجع إلى الظروف التي يمر بها كل

---

(1) الشيخ عبد القادر الجكني، سلاطين برنو، مخطوط، مكتبة جبريل دكوري بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 8 ـ 9 ومجهول، تذكرة النسيان، مخطوط، رقم 7.

(2) نفسه ، ورقة 4. Trimingham J .S ; Op, cit. P 93.

(3) - القلقشندي، المصدر السابق، ج8 ص117، ج5، ص281، وطرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية المرجع السابق ص167، وعبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: شركة الطبع والنشر، 1977، ص147.

من الطرفين، فسلطان برنو إدريس كات جادما ب 909-933هـ/ 1503-1526م كان قد دخل في حروب متواصلة مع قبائل (البولا) في كانم. وبذلك رأى الأجدى به عدم تشتيت جهوده الحربية، بالدخول في حروب مع الأسكيا الحاج محمد في الغرب.

أما أسكيا الحاج محمد.. فرأى عدم الدخول في حرب، والإقلاع عن التفكير في السيطرة على إمارات الهوسا، نظراً لحدوث هزائم لجيشه في معارك سابقة[1] والرأي الثاني ما أورده صاحب مخطوط جوامع التواريخ، من أن حروباً حدثت بين أسكيا الحاج محمد وحكام برنو المعاصرين له، وقد استطاع الأسكيا تحقيق نجاحات باهرة، بالوصول إلى أعماق دولة برنو، حتى أجبر بعض حكامها على مقارعته من داخل حصون مدنها[2].

وأمام هذه الآراء.. فإني أستبعد الرأي الأول، ونلمس أن مبرراته لعدم وقوع الحرب ضعيفة، ونميل إلى الرأي الثاني، وذلك للأسباب الآتية :

1 - إن الذي أورد هذه المعلومة صاحب مخطوطة قديمة، ومن أبناء المنطقة، وقريب من الفترة التي نتحدث عنها، بالإضافة إلى أنها مخطوطة مغمورة، لم تصل إليها أيدي الباحثين على حد علمي .

2 - من المنطق ـ وطالما الهدف الهيمنة الروحية والاقتصادية ـ أن تكون أداة حسم الأمر لصالح أحد الطرفين هي الحرب، فلا تقدم الأماني على طبق من ذهب.

3 - عرف عن أسكيا الحاج محمد أطماعه في السيطرة علي أكبر قدر ممكن من الأراضي، وحتى وإن كان الطرف المقابل له على دين الإسلام.

---

(1) Trimingham J . S ; OP Cit ; P 99 - 122 .

(2) مجهول، جوامع التواريخ، مخطوط، مكتبة أحمد سالم الشود بتنبكت، دون تصنيف ، ورقة 7 ـ 8 ، والقلقشندي، المصدر السابق، ج5 ، ص 281.

إقصاء أسكيا الحاج محمد من حكم البلاد وتولي أساكي من بعده:

على الرغم من هذا المجد الشامخ، الذي بناه أسكيا الحاج محمد، على أكتاف رجال مملكة سنغاي، إلا أن نهايته كانت جد مؤثرة، بإقصائه من الحكم على يد ابنه الأكبر موسى بطريقة، تنم عن انحطاط في سلوكيات أسرة الأسكيا، بأن اجتاح يوم عيد الأضحى مجلس والده، وهو يستعد لصلاة العيد، وأجبره على التنازل عن الحكم قبل الصلاة، وأقسم ألا يصلي أحد حتى يتولى الحكم، فتنازل له والده عن الحكم[1]. وقد كانت أول خطوات حكم أسكيا موسى، نفي والده إلى جزيرة نائية مليئة بالأوساخ من ناموس وضفادع ! بعد أن قضى فترة من الزمن يحكم مملكة سنغاي[2].

وقد اختلف المؤرخون في السنوات التي قضاها، فكعت يذكر أنه مكث تسعاً وثلاثين سنة، وفي رواية أخرى ثلاثاً وأربعين[3].

أما السعدي.. فقد ذكر أن مدة حكمه، ست وثلاثون سنة وستة أشهر[4]، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف، الذي يتراوح بين السنة والنصف، والثلاث سنوات والنصف، فإن ذلك ـ في نظري ـ لايشكل عبئًا في حياة مملكة مثل سنغاي، التي بقيت أزيد من ثلاثمائة سنة تناطح الزمن، ويظل سؤال مهم يطرح نفسه هو :

لماذا اختار أسكيا موسى المكان وهذا اليوم بالذات لانتزاع الحكم؟ ولماذا لم يختر مكاناً وزماناً آخر ؟وما أسباب تنازل والده له بهذه السهولة؟ وماالسر من نفيه له بهذه السرعة وفي مكان قذر؟

---

(1) أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 17.

(2) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص89.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 78.

(4) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 81.

للإجابة عن هذه التساؤلات نورد الآتي :

1 - إن التخطيط للعملية الانقلابية كان على مايبدو منذ مدة، وأن الخلاف بينهم كان مستفحلاً.

2 - اختيار المكان والزمان، مرتب له ترتيباً جيداً، فوالده وأتباعه في المسجد، وبذلك فهم عزل من السلاح، وأتباع أسكيا موسى كانوا محاصرين للمكان، وإذا ماشعر بأي حركة من قبل أتباع والده، فإنه يستطيع القضاء عليهم، وبالتأكيد كانت هذه المعلومة بحوزة أسكيا الحاج محمد، والفائدة الأخرى التي يجنيها من المكان سرعة البيعة له، لأن البيعة تتم في المكان نفسه، وحتى لايكون فيه أخذ ورد حول البيعة.

ولماذا لم يختر مكانًا وزماناً آخر لتنفيذ العملية؟ لأن أتباع أسكيا الحاج محمد، ليس من السهولة أن يسلّموا بهذه السرعة، إلا بعد مقاومة عنيفة قد يخسر فيها أسكيا موسى مابناه، لأن أسكيا الحاج محمد خليفة، والخليفة أمره مطاع، أما الأسباب التي جعلت الأسكيا محمد يرضخ بسرعة لمطالب ابنه.. فإنها راجعة إلى الآتي :

أ) حقن الدمـاء .

ب) يعتبر الأسكيا محمد أن الذي استولى على الحكم ابنه الأكبر، فلا يعتبر أن السلطة خرجت من آل أسكيا، بل باقية فيهم فالحدث ليس بالصعب على نفسيته.

جـ) وضعه الصحي الذي أفاد به عدد من المؤرخين، من أنه كان فاقداً لبصره مدة عشر سنوات، لايعلم به أحد إلا خاصته، أما أبناؤه فليس لديهم أي علم بذلك[1]! وكان ذلك سببًا من أسباب التنازل. ومن وجهة نظري أستبعد هذه المعلومة لسبب واحد، وهو أنه لايعقل أن يكون أبناء الأسكيا المقربين منه لايعلمون أن والدهم فاقد لبصره، طيلة هذه الفترة، ألا يأكلون ويشربون معه؟ هل هو في برج عاجي ؟

(1) - الحاج أمن بن بوعتو، جوامع التواريخ ، مخطوط، ورقة 10.

أما الإجابة عن الفقرة الأخيرة من السؤال، من نفيه بهذه السرعة وفي مكان قذر: فهو خوفاً من أن أتباعه وخاصته يرتبون صفوفهم من جديد، وينقضون على حكم أسكيا موسى، وهو مازال في بدايته، وخاصة أن إخوته قد ثاروا عليه من جراء هذه الحركة. أما نفيه في مكان قذر، فلا نجد له تفسيراً إلا أن سلطان الكرسي ينسي عدداً من أصحابه أقل أسباب الإنسانية، والدليل على ذلك أن المنفي والده فحتى الرابطة الأبوية انطمست من قلبه.

(أسكيا موسى 934-937هـ/ 1528-1531م).

بدأ أسكيا موسى فترته القصيرة، التي لاتزيد عن أربع سنوات، بالصراع المدمر بينه وبين أخوته، وأعمامه[1]، فناصبوه العداء، وقد جرت بينهم معارك طاحنة حاول فيها بعض العلماء أمثال الشيخ أبو البركات التدخل، لجمع الشمل، إلا أن الجرح كان أكبر من أن يلتئم، وخاصة إصرار أسكيا موسى على التعنت المفرط، واللجوء للحرب، وهوالحل النهائي في نظره. ومما يبرهن على ذلك عبارته التي قالها للشيخ أبي البركات : «امهل واصبر حتى يحترقوا بالشمس»[2]، وهي تنم عن الروح العدوانية، وأن طبول الحرب هي الفيصل في ذلك.

لقد دارت بينه وبين اخوته معارك مدمرة، قتل فيها خلق كثير من الطرفين، المنتصر فيها مهزوم، أدت إلى قتله على يد أخيه علي برمح قتله في الحين، ببلدة (منصور) إحدى مقاطعات مدينة جني، وكان ذلك يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان عام السابع والثلاثين وتسعمائة 937 هـ/ 1531م[3]، وهكذا انتهت فترته المؤلمة، والتي لم يستطع خلالها تحقيق أي مكسب لمملكته، وتولى بعده أسكيا محمد بنكن (أسكيا محمد الثاني).

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 88.

(2) المصدر نفسه .

(3) أحمد بابيُر الأرواني، الجواهر الحسان في أخبار السودان، مخطوط ورقة 17، محمود كعت، المصدر السابق، ص 83.

والسؤال المطروح :

هل كان موقف أبناء أسكيا الحاج محمد وأبناء أخيه موقفاً عدائياً لأسكيا موسى، بسبب مالحق بأسكيا محمد ؟ أم من أجل السلطة؟

هذا ماسنجيب عنه فيما بعد.

أسكيا محمد الثاني - محمد بنكن بن عمر كمزاغ (937 - 944هـ) (1531-1537م) نصب جيش سنغاي الأسكيا محمد الثاني بمدينة المنصور بعد موت أسكيا موسى مباشرة، وقد احتج قاتله على هذا التنصيب، والذي رأى فيه سرقة لحق شرعي سرق منه، إلا أن الأمور سارت كما أراد الجيش[1].

والسؤال المطروح :

ولكن لماذا لم ينصبه الجيش، علي الرغم من أنه هو الذي قضى على الأسكيا موسى ؟.

أولا : على مايبدو لم يكن له أنصار في الجيش :

ثانيا : شخصيته لم تكن في نظر الجيش قيادية، بل كانت شخصية اندفاعية «تشحن وتفرغ شحنتها، وتنتهي عند هذا الحد، ولذلك لايصلح أن يكون ملكاً».

قضى أسكيا محمد الثاني جزءاً من فترة حكمه، التي دامت ست سنوات في هدوء، بعد أن تغلب على المصاعب التي أثارها أخوه في وجهه، واستمالته لإسماعيل الذي كان يثير القلاقل ضده، وتعاهد الاثنان على المصحف وزوجه ابنته (فب)[2]، وعلى الرغم من جهوده الخيرة في تهدئة الأوضاع، باستمالة خصومه، إلا أنه كانت له ممارسات تنم عن الرعونة والانحطاط الخلقي، يندى

(1) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق،ص91 ، وزباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق ، ص 42 ، والشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ، ص ص73 - 74.

(2) - محمد محمد المفتي ، التاريخ الخاص بالتواتر، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ ، دول الإسلام وحضارته في أفريقيا، المرجع السابق، ص 7.

لها الجبين بإحضاره بنات عمه أسكيا الحاج محمد عاريات، كاشفات رؤوسهن في مجلسه، وإجبارهم على ترديد عبارة « يان مار فرخ نعامة واحد خير من مائة فروخ دجاجة»[1]، وتعني العبارة بأن أسكيا محمد الثاني الابن الوحيد استطاع اعتلاء عرش سنغاي، وهو بمثابة ابن النعامة؛ لأن النعامة تخرج مايزيد عن عشرين كتكوتا كلها أقوياء، أما أبناء عمه مثل أفراخ الدجاجة ضعاف.

قام بأمر السلطنة، وفق الظروف المتاحة، على الرغم من قصر مدته، بأن حاول تنشيط الحركة الفنية بجلبه آلات الطرب، وأكثر من العطايا والمنح، وغزا بنفسه كنت إلا أنه هزم أمامها، وفر عسكره يجر أذيال الخيبة والهزيمة، وتبعوه حتى وقع في (خضخاض)[2]، وقد تفرق جيشه، وبعد ذلك استطاع إعداده، وقد تخوف أسكيا محمد الثاني من أن يصل خبر هزيمته إلى تنبكت، فجهز جيشاً وواصل مسيرته إلى كاغ، ثم غزا (كُرمُ) التي كانت على الكفر، وكان يقودها (جابير) واستطاع أسكيا محمد الثاني الانتصار عليهم وتشتيت شملهم. ثم اتجه الى بلدة منصور غازياً في شهر شوال أحد شهور العام الثالث والأربعين، وبعث أسكيا محمد الثاني بعيونه للاستطلاع، إلا أن أسكيا إسماعيل كان قد دبر له محاولة انقلابية، فقبض على عيونه، وكبلهم بالحديد، وأرسل له أمر العزل[3].

- هل اتجه أسكيا محمد الثاني إلى مدينة المنصور غازياً فعلاً !

ومن يغزو إذا كانت هي على الإسلام، وهي المدينة التي نصب فيها ليكون ملكاً على سنغاي؟

- في الحقيقة لم يكن غازياً، وإنما كان رادعاً لخصومه، فعندما شعر بمخطط لمحاولة قلب نظام حكمه، بادر إلى مباغتة خصومه للقضاء عليهم.

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المرجع السابق، ص 87.

(2) منطقة بين تنبكت وليرة، والخضخاض تعني عند أهل السودان الغربي الأرض التي رمالها ناعمة، تغوص فيها حوافر الخيل والإبل .

(3) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص ص 89 - 90 .

وقد أورد عبد الرحمن السعدي أن أسكيا محمد الثاني، بقى مطارداً من طرف ابن عمه بأن فر إلى تنبكت، ومنها إلى تندرم، ثم إلى إقليم ملى، ثم إقليم تام، وسكن فيها بأسرته إلى أن توفي، وكان طرده في أول يوم من ذي الحجة عام ثلاث وأربعين وتسعمائة 943 هـ/ 1536م[1]. وأورد السعدي أنه توفي في فترة حكم أسكيا داوود، وكانت وفاته بعد العام تسعمائة وست وستين 966 هـ/ 1558م، فعندما أصبح أسكيا داوود في مقابلة بلد سام، أصدر أمره الى جميع أرباب آلات الطرب، أن يسلموا على أسكيا محمد بنكن بالعزف على الآلات، وعندما سمع الأصوات مات[2].

أسكيا إسماعيل (- 943 946هـ/ 1537 - 1539م)·

على إثر الانقلاب الذي قام به القائد (دند فاري) على أسكيا محمد الثاني، تولى عرش المملكة أسكيا إسماعيل[3]. وعلى مايبدو كان هناك اتفاق مسبق بين إسماعيل ودند فاري، وهو الذي جهز له الجيش بالأموال، التي منحها إياه والده أسكيا الحاج محمد· وقد قضى في السلطنة سنتين، أمضى نصفهما في مطاردة أسكيا محمد الثاني[4].

والسؤال المطروح؟

لماذا هذا التآمر من أسكيا إسماعيل، وهو الذي عاهده أسكيا محمد الثاني على المصحف بأن لايتآمر عليه ؟ ولماذا لم يتول القائد دند فاري، وهو الذي قام بالمحاولة الانقلابية ؟

ـ كان سبب التآمر يرتكز على ثلاث نقاط:

أ ـ محاولة إنقاذ والده من السجن الذي أنهك قواه.

---

(1) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 90 - 91، وعبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق ،ص 71.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص ص 104 - 105.

(3) - نفسه ، ص 91.

(4) - نفسه ، ص 93 .

ب ـ رجوع شقيقاته الى الحجاب، بعد تعرضهن للإهانة من أسكيا محمد الثاني، بإجبارهن على الحضور إلى مجلسه عاريات كاشفات رؤوسهن.

جـ ـ شعورُ أسكيا محمد أن ابن عمه سرق من أبناء أسكيا الحاج محمد السلطة، وبذلك أرجعها إلى بيتهم، بتوليه أمر البلاد دونها الموت.

على الرغم من قصر مدة أسكيا إسماعيل في السلطنة ، إلا أن أول أعماله كان إخراج والده من السجن، وتجريده حملة عسكرية ضد أحد أمراء الوثنيين في الجنوب الغربي من البلاد، بأن سبى منهم أعدادًا هائلة، الأمر الذي ترتب عليه انخفاض ثمن العبيد في سوق جاو[1].

انتشر مرض الطاعون في البلاد، وفتك بحياة الكثير من الأهالي[2]. وقد توفي والده في السنة التي خرج فيها من السجن، ليلة الفطر عام أربعة وأربعين وتسعمائة 944هـ 1537م[3]، وربما مات بمرض الطاعون.

وبعد وفاة أسكيا إسماعيل متأثراً بمرض الطاعون، أثناء غزوه للوثنية[4]، حدث اختلاف بسيط في تاريخ وفاته، فكعت يورد أنه توفي يوم الثلاثاء رابع شعبان سنة ستة وأربعين وتسعمائة 946 هـ، بعد أن مكث في السلطنة سنتين وسبعة أشهر وأربع ليال[5].

أما السعدي فيقول : إنه توفي يوم الأربعاء من شهر رجب في العام السادس والأربعين وتسعمائة 946 هـ، ومكث في السلطنة سنتين وتسعة أشهر[6].

---

(1) محمود كعت المصدر السابق، ص 87، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 94 وزباديه، مملكة سنغاي، المرجع السابق، ص 43 .

(2) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط ورقة 79، وزبادية مملكة سنغاي ، المرجع السابق ص 43.

(3) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 87.

(4) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 95، نفسه، ص 43.

(5) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 87.

(6) – عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 95.

وهذا الاختلاف لايمثل أهمية ، وأوردته من باب التدقيق. . . المهم رجع جيش أسكيا إسماعيل بعد موته من حرب أحد أمراء الوثنية في الجنوب الغربي للبلاد؛ لينصب ملكًا جديدًا على البلاد، هو أسكيا إسحاق الأول.

ولنا أن نتساءل :

لماذا جل ملوك سنغاي ابتداءً من أسكيا موسى وإلى أسكيا إسماعيل كانوا ضعافاً ؟

لأن الجيش هو السلطة الوحيدة التي تملك أحقية تنصيب ملوك المملكة، وبذلك كان قادة الجيش هم المسيرين الفعليين لدفة الحكم بروح عسكرية محدودة الأفق، والملك يملك ولايحكم، ومن هنا ندرك سر فشل جل الملوك في بناء المملكة، وقصر مدة حكمهم، ونستنتج ذلك من تصرف أسكيا إسحاق تجاه الجيش في العرض القادم.

أسكيا إسحاق وصراعاته مع خصومه وغزواته 946-956 / 1539-1549م:

هو أسكيا بن الحاج محمد، لقب بإسحاق كربن وكدبن، بمعنى الحجر الأسود في اصطلاح وعكري، وربما راجع ذلك إما إلى شدة سواده أو قوته.

تولى أمر السلطنة بعد موت أسكيا إسماعيل يوم الأحد سادس شعبان سنة ست وأربعين وتسعمائة 946 هـ/ 1539م، وكان تنصيبه على يد الجيش الذي أدرك خطورته، فقام باستبدال قادة الجيش تدريجياً، واستبدلهم بقادة يخضعون له، عرف عنه الصلاح والهيبة والقوة، كان كثير الصدقات على الفقراء والمحتاجين، مواظباً على الصلوات، وصلاة الجماعة، عاقلاً، ذا فطنة ودهاء. ومن مآثره التي تحكى عنه أنه ذات ليلة في صلاة العشاء، خرج للمسجد، وكانت ليلة ممطرة فسبق المؤذن والإمام، وجلس في ركن من أركان المسجد فحضر المؤذن والإمام، ومكث الإمام ينتظره فخاطبه المؤذن، إذا كنت تنتظر أسكيا إسحاق فإنه لايخرج من مرقده في هذه الليلة، وفي هذا الجو فإنه على

سريره المكسو بأنواع الحرير. فأجابه أسكيا إذا كنتم تنتظرونني فها أنا موجود قبلكم، قوموا إلى صلاتكم[1].

وهذه الحادثة تترجم لنا التقوى التي كان عليها أسكيا إسحاق، وعلى تواضعه في ملبسه ومجلسه، حتى أن المؤذن لم ينتبه لمقدمه.

ومن مآثره : أنه عندما مر على مدينة جني، وهو في طريقه إلى مدينة (تعب)، طلب من المترجم أن يجمع كافة الناس عامتهم وخاصتهم، وطلب منه أن ينادي فيهم أن السلطان ماأتى إلا لإصلاح حال الرعية، وأن يعلموه بمن يفسد في المسلمين، وبمن يظلم الناس في هذه البلدة، وسكت الجميع، ونهض من بين الحاضرين الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ، الذي سيرد الحديث عنه فيما بعد ـ وخاطب أسكيا إسحاق بقوله «وهل ماتقوله حقاً، فقال: والله لحق، فقال: إن أعلمناك بذلك الظالم ماذا تفعل له؟ قال: أفعل له مايستحق من ضرب وقتل... إلخ»، فأجابه الفقيه ماعرفنا أظلم منك، أنت أبو كل ظالم، فإن كنت تقتل الظالم فأبدأ بنفسك يرحمك الله، وهذا المال الذي يجلبه إليك من هنا وهناك، وتثري على حساب الآخرين. وعندما أكمل الفقيه حديثه بكى أسكيا إسحاق بكاءً شديداً، ورجع إلى بيته وتاب من فعلته، وأجبر الفقيه محمود بغيغ على تولي قضاء جني، على الرغم من رفض الأخير تولي هذا المنصب[2].

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تواضع أسكيا إسحاق واحترامه للعلماء، حتى ولو كان في ذلك مايمسه شخصياً، وإيمان الرجل، وحرية الرأي. وتذكرنا هذه الحادثة بالفاروق، عمر بن الخطاب، وقصته المشهورة، عندما كان يقسم في الغنائم.

وفي المقابل كان حازماً مع خصومه، ينفق بسخاء من أجل التخلص منهم،

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 95، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص 88، والشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص75 .

(2) محمود كعت ، المصدر السابق ، ص 90.

وقد منح الزغراني ثلاثين بقرة لم تلد من أجل قتل (كرمن فاري عثمان) في بلدة بير، ثم قتل الزغراني فيما بعد[1].

وهذه الحادثة تنم عن الدهاء، فبموت الزغراني يموت معه سر المؤامرة، وقد حدثت في عهده صراعات دموية، بينه وبين بلمع محمد الصادق ألد خصومه، وقد أرسل أسكيا إسحاق برسالة إلى أهالي تنبكت يخبرهم باعتلائه عرش سنغاي، إلا أن بلمع أمر أهل تنبكت بالقبض على رسله، وأوهمهم بلمع بأنه الملك الفعلي لسنغاي، وقد استبشر أهالي تنبكت وكبار رجالها خيرًا، بتولي بلمع، وقد عبروا عن هذه البهجة بالصعود إلى سطوح المنازل وضرب الطبول، إلا أن الرياح تجري بمالا تشتهي السفن، فما هو إلا أسبوع حتى استطاع أسكيا إسحاق التربع على عرش المملكة، وبذلك انتهت أوهام بلمع[2]. وأمام الأخطار المحدقة بأسكيا إسحاق، أشار عليه مستشاره أن يستميل خصومه إلى جانبه، وخاصة (عمر كت بن محمد بنكن) ومحمد بن أسكيا الحاج، فأرسل في البداية إلى عمر، وقد حضر إليه ولاطفه الحديث وقدم له الهدايا، فرفع الأخير التراب عن رأسه، إعلاناً بتقديم فروض الولاء والطاعة، وهو الذي تولى فيما بعد مقارعة خصوم أسكيا إسحاق. كما كسب ود محمد بن أسكيا الحاج بأن لاطفه وقدم له الهدايا، ووعده بتوليه مناصب رفيعة، إضافة الى ذلك كسب ود قبائل الطوارق التي عرفت بقوتها[3].

بعد ترتيب أسكيا إسحاق لأوراقه مع خصومه، واستمالتهم له، وجه جلَّ اهتمامه لمقارعة خصمه العنيد بلمع محمد الصادق.

وقد قاد الصراع الذي خاضه أسكيا إسحاق ضد خصمه القائد عمر كت الذي بعث الحماس في الأهالي بخطبة حماسية.. رفع فيها الروح المعنوية، وشحن قلوب الناس ضد بلمع وجهز جيشاً، كان أغلبه من الطوارق الذين شبههم

(1) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 96.

(2) - نفسه ، ص 125.

(3) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 127.

السعدي لكثرتهم بأسراب جراد، وانقضوا على جيش بلمع، الذي نزل في (كنب كُري) (وبنبت قباءه)، كان ذلك يوم الجمعة الثامن عشر من جمادى الأول وكانت معركة حامية الوطيس، أبلى فيها القائد عمركت بلاءً حسنًا، واستطاع أن يكسر جيش خصمه، ويشتت فلوله ويتابعه إلى تنبكت، وأهل تنبكت لاعلم لهم بخبر الهزيمة، إلى أن أخبرهم بلمع بما جرى له، وقد قبض على أنصار بلمع، فمنهم من قتله أسكيا إسحاق بطريقة وحشية مثل (هنبركي) الذي وضعه في (طين قوي التماسك)[1] وخيط عليه جلد بقرة ودفنه حيا، ومنهم من سجنه مثل (ازوفرم بكر)، ومنهم من ضربه بالسياط حتى الموت[2]، إلى آخر أنواع التعذيب، وهذا يبرهن على حالة الفزع والهلع، التي كان يعيشها أسكيا إسحاق وأتباعه وصعوبة الموقف وقوة خصومه.

بعد أن استتبت له الأمور، حاول الالتفات إلى تنظيم المملكة المترامية الأطراف، فاتخذ سياسة استمالة أقاربه، فولى محمود بن اسماعيل على بلدة كرمن وجعله (كرمن فاري)[3]، وعين أخاه، محمد كاغ على مقاطعة، وأرسل عدداً من أصدقائه بعدد من الجمال الممتازة إلى تنبكت[4]، ويقصد من ذلك أن يبين لأهل تنبكت الذين ناصروا بلمع قوته، وهيبته، وثراءه، وبذلك تعتبر مناورة سياسية.

وكانت لأسكيا إسحاق عدة غزوات، يهدف من ورائها إلى تأديب الخارجين على نطاق حكمه، ونشر الإسلام، ففي السنة الثامنة والأربعين وتسعمائة 948 هـ/ 1541م دخل(كبر)، وصلى عيد الأضحى فيها.

كما غزا في السنة التاسعة والأربعين وتسعمائة 949 هـ/ 1542م المناطق

---

(1) - توجد مقاطع لهذا الطين الي الجنوب من مدينة جاو، وفي مدينة طاوة، وهو شديد التماسك، يستخدمه الأهالي إلى اليوم في صناعة خزنات الحبوب.

(2) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 128 - 129.

(3) - بمعني الحاكم المطلق .

(4) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 131.

التي في اتجاه (تعب) إلى أن وصلها، وهي آخر بلدان سلاطين (بُندكُ)، وفي رجوعه عرج على مدينة جني، وصلى بهاالجمعة، ثم توجه إلى كاغ، وقد تعرض إلى محاولة اغتيال من طرف (فرن علي كشر) في ميناء كبر، إلا أن البحارة دفعوا المهاجم في النهر، وبذلك نجا أسكيا إسحاق من الموت[1].

وتدلنا هذه الحادثة على حنكة وفطنة أسكيا إسحاق، والتفاف أتباعه حوله، حيث أنهم لم يؤازروا الخائن.

ولنرجع إلى غزواته، فقد واصل تحركه بأن ترك أخاه (داوود كرمن فاري)، ومكث ثماني سنوات، وفي عام واحد وخمسين وتسعمائة 951هـ/ 1544م اتجه الى (كُكُركاب) وهو موضع بأرض دند، وفي العام الثاني والخمسين وتسعمائة 952 هـ/ 1545م بعث أخاه كرمن فاري داوود إلى ملّى، وعندما سمع سلطانها فر خوفاً من بطش كرمن[2].

وفي سنة ثماني وتسعين وتسعمائة 998هـ/ 1589م واصل غزوه لتنفن، وهم قوم على الكفر يعرفون بكفار كرم، وفي العام التاسع والتسعين وتسعمائة 999هـ/ 1590م غزا (كل) إلا أن مخططه التأديبي والتوسعي في منطقة السودان الغربي أثارت عليه تهديدات سلطان مراكش، الذي طلب منه تسليم ملاحة تغاز[3]، والذي سيرد الحديث عن هذا في فقرة الحضور- المغربي في السودان الغربي.

أما عن نهايته، فقد أورد كعت بأن أسكيا إسحاق توفي أول العام السادس والخمسين والتسعمائة 956هـ/ 1544م، ومكث في السلطنة تسعة سنين وتسع أشهر وتسع ليال في بلد كُيكى[4].

---

(1) عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 97.

(2) نفسه ، ص 99.

(3) محمد محمود الأرواني، الترجمان في تاريخ الصحراء وأروان، مخطوط، مركز أحمد التنبكتي، زقم 1921، مخطوط ورقة 20، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 132.

(4) محمود كعت، المصدر السابق ، ص 93.

أما السعدي فقد أفاد أنه مات يوم السبت الرابع والعشرين من صفر، سنة ست وخمسين وتسعمائة 956 هـ/ 1544م، ومكث في الحكم تسع سنين وستة أشهر[1].

إذًا فقد مكث أسكيا إسحاق في السلطنة مايقارب عشر سنوات، كانت جلها كراً وفراً.

أسكيا داوود بن أسكيا الحاج محمد وغزوته :

اختلف المؤرخون في تاريخ تولى أسكيا داوود أمر السلطنة، فقد أورد كعت بأنه تولى في الثاني والعشرين من صفر، عام خمسة وخمسين وتسعمائة 955هـ / 1548م ، ومكت في الحكم أربعًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر[2]. وذكر عبد الرحمن السعدي بأنه تولى أمر سنغاي، يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر ببلدة كوكيا، ورجع إلى كاغ، في أول يوم ربيع الأول[3]. وأفاد صاحب مخطوطة الحقوق الاجتماعية للعبيد، أنه تولى الحكم في العام الثامن والخمسين، بعد تسعمائة 958هـ / 1551م[4].

وأمام هذه الآراء.. فإني أرجح الرأيين الأولين للأسباب الآتية :

1 - أن محمود كعت كان معاصراً لأسكيا داوود.

2 - أن عبد الرحمن السعدي كان قريبًا لفترته، وجده توفي في فترة الأسكيا داوود.

3 - أن الفترة التي ذكرها سيد محمد الهادي، فترة طويلة بين موت أسكيا إسحاق، وتولى أسكيا داوود، ومن غير المعقول أن تبقي هذه الفترة دون حاكم.

---

(1) عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 100.

(2) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 93.

(3) ـ عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص 100.

(4) ـ سيدي محمد الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط ورقة 100 .

4 - فترة سيدي محمد الهادي فترة متأخرة، فهو من أبناء القرن الثامن عشرالميلادي .

أورد كعت، بأن أسكيا داوود واجه مصاعب جمة، من طرف والده أسكيا الحاج محمد منذ صغره. ومرد ذلك أن الأخير عند زيارته للأراضي المقدسة ومصر، أخبره الصالحون والعلماء، بأن هناك ابناً له، وأعطوه أوصافه ، هو الذي سينتزع الرئاسة من إخوته، ويمكث أطول فترة من غيره، ويسلم السلطنة من بعده إلى أبنائه، وبذلك ناصبه العداء.

على الرغم من أن هذه المعلومة أوردها كعت، الذي كان معاصراً لأسكيا داوود، إلا أني أخالفه الرأي لسبب واحد، وهو أن الخلاف، إن وجد بين أسكيا الحاج محمد وابنه، فمرده إلى اختلاف في وجهات النظر فقط.

لقد عرف عن أسكيا داوود جملة من الخصال الطيبة ، فكان سلطاناً مهيباً، فصيحاً، سخيا، جواداً، ذا وجه بشوش، ومزاج رائق ، حافظاً لكتاب الله، واتخذ شيخًا يعلمه علوم الدين من بعد الزوال إلى العصر .

هو أول من اتخذ خزائن للمال، وخزائن للكتب، وله نُساخ ينسخون الكتب ويهديها للعلماء [1]. وفي عهده، ازدهرت الثقافة العربية الإسلامية، ومن خصاله الحميدة: تصدقه على الفقراء والمحتاجين، فقد تصدق بأقل من ألف صنية[2]. ومن مآثره الطيبة أنه أعتق أبناء العجوز، الذين كانوا من ضمن عبيد تركة زنك، ووزع الباقي منهم، بأن أعطى الفع بكر سبعة وعشرين عبداً، صدقة من السلطان، وأعطى مجموعة إلى المسجد الكبير نساءً ورجالاً: النساء ينسجن الحصير للمسجد، والرجال يحملون الطين والخشب لأجل البناء، كما أعطى للخطيب سبعة وعشرين عبداً[3]. كما كان يتصدق على الفقراء والمحتاجين بالغنم

(1) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص95.

(2) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 46، ومحمود كعت، المصدر السابق، ص97.

(3) ـ محمود كعت ، المصدر السابق، ص 106.

والبقر، وقد منح أخت القاضي هند الفع، ألف شاة من الضأن والماعز. ومن شمائله احترامه لأصدقائه، يأتيهم إلى بيوتهم ويسهر معهم، إلى الثلث الأول من الليل، وهذا ماحدث إلى الفع كعت، الذي جاءه في بعض السنين في كاغ، واستقبله بالترحيب، وفرح غاية الفرح، وأضافه، وأكرم وفادته وكان يأتيه في الليل ويسهر معه. ومن سمو احترامه للقاضي، أنه كان لايرد له طلباً يصدر منه، وقد طلب ألفا كعت من أسكيا داوود، أن يمنحه بعض الأموال لتزويج بناته وأولاده، وفعل ذلك بل اشترى له (القاوس)[1] بثمن باهض[2].

لقد وهبه الله ثروة في كل بلد من بلاد السودان، فكانت له في كل بلد مزرعة، وحراثة مالا يحصيه إلا الله، وله خدام يقومون على أمر هذه الثروة، وله عبيد في كل منطقة، ولانريد أن نسترسل في الحديث عن ثرائه لأنه يطول.

أما عن حاشيته فقد حف نفسه بشيء من الهالة ، فكان له رجل يلازمه، يدعى (وَنْدَعْ) يشرح له كل شيء، وهو الذي عرفه بالحاج الكنتوي، الذي قال إن أجداده أصولهم عبيد، عندما كان الكنتوي من ضمن وفد الحجيج السوداني. إضافة لذلك كان له عبيد يرافقونه، يصل تعدادهم إلى سبعمائة عبد، وعلى كل واحد منهم لباس وحرير، فإذا أراد أسكيا داوود أن يبصق أو يتفل، أسرع إليه الخصيان بأن يسبق كمه ويبصق فيه ثم يمسح فاه من النخامة[3].

وبمجرد تولي أسكيا داوود أمر سنغاي، رتب جيشه، فكان العام الأول من توليه بداية الغزو، فغزا المناطق التي في اتجاه موشى، الى أن وصل موشى وانتصر عليها. وفي أواخر العام السابع والخمسين والتسعمائة 957هـ/ 1550م غـزا المناطق إلى (تع) (وكُم)، وحارب فيها حاكمهم (فندنك جاجي تمانـي)، وقد أحضر معه (مجموعة من القينين والقينات المسميات مابي)[4]، وجعل لهم

(1) القاوس هي الحلي التي ترتديها العروس.

(2) نفسه ، ص 108.

(3) محمود كعت ، المصدر السابق، ص ص 111 ـ 114.

(4) ـ اختص الفولا، وهم فرع من الفلان بالغناء والطرب، والى يومنا هذا يمارسون هذه المهنة في أفراحهم، ويحيون سهرات في القبائل الأخرى، وسيرد ذكرهم بالتفصيل عند الحديث عن قبائل الفلان.

حارة في كاغ. وفي شهر جمادي الأول في العام الثامن والخمسين بعد التسعمائة 958 هـ/ 1551م، رجع أسكيا داوود إلى تندرم، وفي العام الواحد والستين والتسعمائة 961 هـ/ 1553م ذهب إلى كوكيا، وأرسل (هيكي على دادُ) بسرية إلى كشن، كان عددها، أربعة وعشرين فارساً من أهل سنغي ، ومن كبار القادة، وكان خصمهم يفوقهم عدداً وعتاداً، بأن بلغ عددهم أربعمائة فارس من أهل لبت وكشن، والتقى الجمعان في موضع يعرف (بكرفت)، وكانت القوتين غير متكافئتين، فانتصر أهل لبت وكشن على مجموعة أسكيا داوود، وقتل منهم خمسة عشر رجلاً، منهم القائد هيكي على دادُ، وأخوه محمد بنكن كوم بن فرن عمر كمزاع وغيرهم، وقبضوا على تسعة مجروحين منهم (علو زليل بن فرن عمر كمزاغ) و(بكر شيلي أجي) و(محمد دل أجي) وغيرهم، وقدموا لهم العلاج واهتموا بهم اهتماما خاصاً، وأعجبوا بشجاعتهم، وقالوا مثل هؤلاء لايستحقون الموت وبعثوا بهم إلى أسكيا داوود، وأصبحوا مضربًا للمثل عندهم في الشجاعة والبطولة[1].

وأمام هذه المعلومات، فإني أستبعد ما أورده عبد الرحمن السعدي، من أن أسكيا داوود يبعث إلى أعدائه بسرية من الجيش، فيها خيرة قادته، تتألف من أربعة وعشرين فارساً، لأنه لايعقل أن يتصرف سلطان محنك، له تجربة طويلة في الحروب، مثل أسكيا داوود هذا التصرف، بأن يبعث مجموعة قليلة إلى أعدائه، إلا إذا كان يقصد من إرسالهم استطلاع الموقف فقط، وربما وجد رجاله أنفسهم أمام أعدائهم وجهاً لوجه، ففضلوا منازلتهم على الفرار منهم.

بعد مقتل هيكي علي دادُ في المعركة السابقة، تولى أمر القيادة (بكر شيلي إجي) وفي العام الثاني والستين بعد التسعمائة 962 هـ/ 1554م، اتجه من (برن) إلى (ورش بكر)، وأخرج (شاغ فر محمد كناتي) الذي أصله وعكري وههك كرى كي كمكل بالجيش إلى الجبال. وفي العام الثالث والستين جرد

(1) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 103.

جيشا ـ وغزا إلى أن وصل (بُص)، ونشر فيها الخراب. وفي السنة السادسة والستين بعد التسمائة 966 هـ/ 1558 غزا إلى أن وصل إلى (بُسرم) في أرض ملّي، إلا أن (سُوم أنزُ) عند وصوله هناك، توفي وتولى بعده ابنه، الذي انتهج سياسة والده، فواصل سيره إلى (دبكرلا)، وتقاتل مع سلطان ملي، ومع كنت فرن، وانتصر عليه، وتزوج ابنة سلطان ملي (نار)، ورجع بها إلى سنغاي، بعد أن زين عنقها ويديها بالذهب والملابس، وبقيت معه إلى أن توفيت.

تجاوز أسكيا داوود بجيشه (سام)، الذي ودع فيها أسكيا محمد بنكن إلى مثواه الأخير. وواصل مسيرته إلى جني حيث صلى بها الجمعة، وتفقد أحوالها وغادرها، واتجه غازياً بعدها للمرة الثانية، من برن إلى موشى الذي فـــر جيشه[1].

يبدو أن إقليم ملي يمثل ثقلاً سياسياً واقتصادياً، وكثيراً ما أعلن استقلاله عن باقي أقاليم المملكة، وهذا مانلمسه من جّل سلاطين سنغاي، فأول من يتولى يغزو ملي؛ لإعادتها إلى حاضرة المملكة.

وفي عام واحد وسبعين وتسعمائة 971 هـ/ 1563م، أرسل أسكيا داوود قائده (فاري بكر علي دُودُ) إلى أرض بَرَك لقتال (ابن هو)، وأصدر له الأوامر بعدم إبلاغ الجيش عن الوجهة المراد قصدها، فخرج الجيش في فصل الصيف، وكان الحر شديداً، وسار في الفيافي، وتذمر الجيش من هذه الغزوة؛ لأنه لايعرف المكان المقصود، وكذلك الفصل غير مناسب للغزو، ولكن القائد واصل سيره إلى أن وصل المكان المقصود، وباغت أعداءه وانتصر عليهم، وكر راجعًا في شهر ذي الحجة المكمل لسنة 971 هـ/ 1563م إلى كاغ، ودخلها[2]. وفي السنة الثامنة والسبعين وتسعمائة 978 هـ/ 1570م غزا أسكيا داوود إلى(سُورُ بَنْتَبْنَا) في أرض ملّي؛ وهي آخر غزواته في (اترم)، وبعث ابنه (كري فرم الحاج)

(1) - عبد الرحمن السعدى .

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص 107.

إلى الحمدية، ومعه صهره سلطان نانو الحاج محمود بير بن محمد الليم، في أربعة وعشرين ألف عسكري، من الطوارق، اثني عشر مع كل واحد منهم، فأغاروا على العرب، في تلك الجهات ورجعوا[1]. ثم غزا إلى أن وصل أرض كرم، وواصل سيره بجيشه إلى بلد زينك وقاتل فيها رئيسها (تن تُوتم)، ثم أرسل كرمن فاري يعقوب، وأغار على (دع كي)، فسبا جميع عياله، ثم تدخل صالح بينهما فرد له عياله، وأغار ثلاث غارات : الأولى إلى حد مُوشى، والثانية إلى أرض دند، والثالثة حتى وصل إلى لُولامي[2].

وفي هذه الأثناء كانت تربطه علاقة وطيدة بملك مراكش المنصور الذهبي، وسبب العلاقة أن المنصور بعث إلى (أسكيا داوود)، لكي يسلمه خراج معدن تغاز عاماً واحداً، فبعث له أسكيا داوود، عشرة آلاف ذهباً، وهدية وعطية خير، فتعجب المنصور من سخاء أسكيا وكرمه، فكان سبب المحبة والوصال بينهم، ومايؤكد ذلك، أنه عندما سمع المنصور بخبر وفاة أسكيا داوود، جلس في قصره، واستقبل العزاء في أسكيا داوود من وجهاء المغرب[3].

أما عن وفاته فإنه فارق الحياة ة يوم الثلاثاء سابع عشر رجب، عام واحد وتسعين وتسعمائة 991 هـ/ 1583م، ودفن بكاغ خلف قبر والده، وتولى بعده ابنه أسكيا الحاج في اليوم الذي توفي فيه[4].

أسكيا الحاج بن داوود :

هو أكبر إخوته، عرف منذ صغره بين أقرانه بالنجدة، والشجاعة والصبر، وذكر أهل العقل والمعرفة أنه يستحق أن يكون أميراً، ولو في بغداد[5]. تولى حكم المملكة في اليوم الذي توفي فيه والده قبل دفنه، يوم الثلاثاء سابع عشر

(1) ـ عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق ، ص 109.

(2) ـ نفسه ، ص 110.

(3) ـ نفسه ص111.

(4) – محمود كعت، المصدر السابق، ص119.

(5) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 115.

من رجب، عام واحد وتسعين وتسعمائة 991 هـ 1583م، وكان أسكيا داوود قبل موته يرى أن يتولى ابنه محمد بنكن، إلا أن محمدًا لم يكن حاضراً عند وفاة والده، فبايع أبناء أسكيا داوود أخاهم الأكبر أسكيا الحاج، ثم بايعه الجيش[1].

وقد قيل في مدح أسكيا الحاج، أن اثنين من سلاطين دولة سنغاي، أكبر من سلطنتهم، أسكيا الحاج محمد وحفيده أسكيا الحاج بن أسكيا داوود ! واثنان من سلاطين سنغاي، في حجم السلطنة نفسها، أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود، وأسكيا محمد بنكن بن فرن عمر كمزاغ، أما الباقون فسلطنة سنغاي أكبر منهم[2].

وأمام ما أورده عبد الرحمن السعدي، فإني أرى أن كافة حكام سنغاي ابتداء من أسكيا الحاج محمد، آخر حاكم منهم، تعتبر مملكة سنغاي أكبر منهم، باستثناء الملك سني علي، الذي أسس المملكة، وذلك للأسباب الآتية :

1 - أن أسكيا الحاج محمد تولى ، ووجد المملكة جاهزة، والأمصار مفتوحة، فما كان منه إلا أنه حافظ على ماورثه عن سلفه وحاول توسيعه، ولكن ليس بالكفاءة نفسها، التي وسعها بها الملك سني علي.

2 ـ التناحر الذي كان يدور، في القصر الملكي، ابتداء من أسكيا الحاج محمد، وإلى آخر ملك حكمهم، ينم عن أنهم لم يكونوا في المستوى المطلوب، لتسيير دفة الحكم.

3 ـ أسكيا الحاج الذي قال عنه عبد الرحمن السعدي إنه يستحق أن يحكم بغداد! في الحقيقة مبالغة تاريخية؛ فهو لم يستطيع أن يثبت، حتى في مملكة سنغاي لفترة طويلة، بل جاءه أمر العزل من ابنه بسرعة.

4 - لو قال عبد الرحمن السعدي عن الملك سني علي الكلام، الذي قاله عن

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص 119، وعبد الرحمان السعدي، المصدر السابق، ص115.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص115.

أسكيا الحاج محمد، وحفيده، لكان الأمر معقولاً إلى حد ما، لأن الملك سني علي، فعلاً أسس مملكة مترامية الأطراف، ومكث أكثر من خمس وعشرين سنة ممتطئاً صهوة جواده، يفتح الأمصار.

وعرف بقيادته الناجحة، والحزم الصارم، والاعتدال في الحكم، وهذه الميزات تساعد صاحبها على تسيير أمور أي دولة.

دخل خليفة أسكيا داوود، إلى حكم سنغاي، وهو معتل الصحة بمرض القروح في أسفله، الأمر الذي أقعده عن القيام بمهامه على خير وجه.

أما عن نشاطه العسكري، فقد أورد كعت، أنه غزا أهل وكد وقتل فرن وكد، وسبا أبناءهم، وأخذ أموالهم وعبيدهم، إلى بلد كاغ[1]. إلا أن عبد الرحمن السعدي استبعد هذا الخبر، وذكر أن مرضه منعه من الغزو، فلم يغز ولو مرة واحدة؛ نظراً لأنه كان لايتحكم في بوله[2]. وقد ترتب عن مرضه المزمن، حدوث قلاقل واستبداد من طرف بعض حكام المقاطعات، وحدثت في عهده، حالة من الفوضى وعدم استتباب الأمن، وتعطل القضاء في تنبكت سنة وخمسة أشهر، إلى أن تدخل الإمام محمد بغيع، وتولى القضاء. ولولاه لسرقت الأموال وضاع حق اليتامى والمحتاجين[3].

وأمام هذه الظروف القاسية التي مرت بها سنغاي، تدخل أسكيا محمد بان لإنقاذ الموقف، في المحرم عام خمسة وتسعين وتسعمائة 995 هـ/ 1586م، وذهب أسكيا الحاج إلى تندبى، وكان في تلك الفترة، يعانى من مرض مزمن، وماهي إلا فترة قصيرة بعد عزله حتى فارق الحياة[4].

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص119.

(2) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 115.

(3) ـ محمود كعت ، ص 114.

(4) ـ نفسه ، ص 126.

أسكيا محمد بان بن أسكيا داوود وسياسته الداخلية :

تولى أسكيا محمد بان أمر السلطنة، عام خمسة وتسعين وتسعمائة 995هـ / 1586م بعد عزله لأخيه أسكيا الحاج[1].

انتهج أسكيا محمد بان سياسة مغايرة لما كان عليه أسلافه، الذين تولوا أمر السلطنة؛ فقد أعاد تنظيم، وتنصيب إخوته، وأحكم في رقاب بعضهم السيف، فعين أخاه صالح كرمن فاري، ومحمد الصادق بلمع، وعزل أخاه حامد، وقتل أخويه فرن محمد بنكن وفرن الهادي في (كنت)، وقد نعت الأخير (أسكيا محمد بان) بالأحمق، وامتدح أخاه أسكيا الحاج بأنه لم يقتل أحداً من أخوته، وقد اتهمه بانحطاط أخلاقه[2].

في ظل هذه السياسة، التي اختطها أسكيا محمد بان، والتي لم ترق بعض أخوته وأتباعه، بدأت المؤامرات تحاك ضده، بقصد الإطاحة به، فاجتمع من لهم الحل والعقد، ومنهم من له منصب في المملكة، وعلى رأسهم بنتل فرم نوح و(هيكي محمد فاي) والد (كلشع بكر) و(شاع فرم المختار) وغيرهم[3]. واتفق الجميع على تولية بنتل فرم نوح السلطنة، وعلى ليلة معينة ينفخ فيها بنتل البوق فيجتمعون حوله، وينصبوه على المملكة بدل أسكيا محمد بان، غير أن الأمر انكشف وفسدت الخطة دون أن يعلم بنتل نوح بالأمر، فقبض على مدبري المؤامرة، وأودع بعضهم السجن. أما صاحب الشأن فانتظر الموعد المحدد، ونفخ في البوق، ولم يأته أحد ففر خارج البلدة، إلا أن أتباع أسكيا محمد بان أودعوه سجن دند[4].

لقد حدثت صراعات ضد أسكيا محمد بان، كان آخرها عندما جرد بلمع حملة عسكرية ضده، انطلق بها من كبر إلى كاغ، مقر أسكيا محمد بان في فصل الصيف؛ قصد انتزاع الحكم منه، وعندما سمع بمقدمه، انفجرغيظاً، وأدرك أن

(1) ـ محمود كعت، المصدر السابق، ص 125، وعبد الرحمن السعدي المصدر السابق، ص 121.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 121.

(3) ـ نفسه ، ص 122.

(4) ـ نفسه، ص122.

الظروف تسير ضده، فخرج بجيشه، في وقت القيلولة يوم السبت الثاني عشر من جمادى الأولى، والتقى الجمعان على مشارف كاغ، وفي هذه الأثناء توفي أسكيا محمد بان في منزله عند الظهيرة، وقيل في شأن موته أمران، هما:

الأول : أنه مات من شدة القيظ، ويعلل السعدي ذلك بأن شفته السفلى وجدت بها جروح ، وقد سمعه بعض الناس يقول إن بلمع جاء ليعزلني، قبح الله سلطنته.

الثاني : أن جسمه كان تخينًا جداً، وعندما خرج لبس درعاً حديدياً، كان سبباً من أسباب موته[1].

ونرى من أسباب موته، حالته النفسية المضطربة، وارتفاع درجة الحرارة، خاصة وأنه يعاني من السمنة المفرطة، وأدى لباس الدرع الحديدي إلى ارتفاع ضغط الدم على المخ وأودى بحياته.

مكث أسكيا محمد بان في السلطنة سنة واحدة وأربعة أشهر وثمانية أيام، ثم تولى بعده أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود !![2].

أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود :

تولى أسكيا إسحاق، بعد وفاة أسكيا محمد بان، على إثر فشل محاولة سرقة السلطة من يده، على يد كبار الجيش وأكابر القوم، ومنهم كنفار محمود بن أسكيا إسماعيل بن أسكيا محمد، وقد تولى أمر البلاد بعد أن بايعه حتى المعارضين له.

وعندما تولى، أغدق على الجنود المنح والعطايا، وأرضاهم، وتوجه صوب أخيه بلمع الصادق، ليواصل المرحلة التي انتهى فيها أسكيا محمد بان، وقد عرف عن أسكيا إسحاق الكرم والجود والسماحة، وكان يحب العلماء ويجزل لهم العطاء[3].

---

(1) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 125.

(2) – نفسه، ص 125.

(3) ـ عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 135.

انطلق بجيشه صوب أخيه، يوم الثالث عشر من جمادى الأولى عام ستة وتسعين وتسعمائة 996 هـ/ 1587م، دون علم بلمع الصادق بموت أسكيا محمد بان. وكان بلمع على يقين من النصر، وأعجبته كثرة جنوده، وقد أرسل له أسكيا إسحاق أربعمائة فارس، مرتدين القلنسوات، من أولاد الأساكي وغيرهم، وعندما نظرهم بلمع اعتقد أنهم قادمون له بقصد الدخول في طاعته، ولكن كان العكس، فنزل الفرسان وحيوه بتحية نصها «تُنكر تُنكر بلمع تنكر تنكر أسكي إسحاق أخوك يسلم عليك » ويعلمك بأن أسكيا محمد بان مات بموت الفجاة، وأني توليت أمر البلاد فمن أطاعني فليس له عندي إلا الخير والمحبة، ومن خالفني فقد خالف أمر الله وعصاه.

وقد تأثر من الموقف بلمع، وخاف وشعر بأن الأمور تسير ضده، وأمر بضرب الطبل والرحيل في الساعة نفسها، وسار بجيشه صوب جيش أسكيا إسحاق إلى أن اقترب منه، وسمع صوت طبول جيشه، وحصل اشتباك بينهم، استطاع معها أسكيا إسحاق هزيمة جيش بلمع، وقد تشتت جمعه، واستمر أتباع أسكيا إسحاق في مطاردته دون الرغبة في قتله، فطاردوه إلى تنبكت ثم كندم وإلى نتدرم، إلى أن وصل الى قرية (لُنُف) بقرب من (بُوي)، وفي هذا المكان كانت له زوجة وابن يدعى أسكي محمد بنكن، ووصل إلى بوي حيث أبدل جواده، ووصل إلى دار بنكي، وقد استمرت الفتنة بينهم أربعة أشهر، وبعد أن تخلص أسكيا إسحاق من خصمه بلمع رجع إلى كاغ[1].

بعد أن انتصر أسكيا إسحاق بن أسكيا داوود على خصمه بلمع، فاجاءه المنضور الذهبي بطلبه بتسليم ملحة تغاز إلى المغرب، والاعتراف بسلطة ملك المغرب على سنغاي كما هي على المغرب، وماهي إلا فترة قصيرة حتى جرد له المنصور جيشاً بقيادة جودار، وقد قضت نهائيا على الفوضى، التي كانت عليها مملكة سنغاي في سنة 1000هـ/ 1591 م، وهذا ماسنتحدث عنه بالتفصيل في جزئية الحضور المغربي في السودان الغربي.

---

(1) ـ عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 135 ـ 140.

بعد هذا العرض لسلاطين مملكة سنغاي، الذين جاءوا إلى الحكم بعد أسكيا الحاج محمد.. فإنني حاولت الغوص في شخصيتهم بقدر قوة الشخصية، والتي وصلت فيها إلى نتيجة، أشرت إليها فيما سبق بأن سلاطين سنغاي، كانت السلطنة أكبر منهم، باستثناء الملك سني علي.

الحضور المغربي بالسودان الغربي وحالة المنطقة عند مجيئهم :

يخطئ عدد من المؤرخين الذين يربطون الثقل المغربي في السودان الغربي بفترة السعديين، فالمغاربة كانوا رواداً للمنطقة منذ زمن بعيد، يعود إلى ماقبل فترة إمبراطورية غانا الوثنية، ونجد ذكراً واضحًا لهم، فالعالم والتاجر الدرعي والسجلماسي والفاسي والفجيجي وغيرهم[1]. كما كانت هناك عائلات مغربية قديمة، في المنطقة عمق التلاحم التاريخي بين المغرب والسودان الغربي، وهذه العائلات هي :

1 - عائلة تعلي، ومن بين أبنائها إمام المسجد الكبير محمد بن الصديق[2].

2 - عائلة الخضر، وقد قدم جدهم الأول من مدينة فاس، وكان كاتبًا للملك سني علي[3].

3 - العائلات التواتية[4].

4 - عائلة الجراري[5] مقيمة في بلدة أروان، ومن أبنائها سيدي أحمد بن العزيز الجراري[6].

---

(1) - أبي القاسم بن محمد بن عبد الجبار الفجيجي، الفريد في تقييد الشريد، وتوصيد الوبيد، تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة 1983، ص 51.

(2) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 218، ومحمد الغربي، المرجع السابق، ص 189.

(3) - عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 68.

(4) - نفسه ، ص ص59 - 60.

(5)- التقيت بعدد من أبنائها في صيف عام 1985 و 1987 في بلدة أروان، وتنبكت وأقدز، وأكدوا لي أن أجدادهم قدموا من المغرب. وقد سألت أستاذنا الدكتور عباس الجراري، وهو من كبار علماء المغرب عن ذلك، فأكد لي صدق مايقولون.

(6) - نفسه، ص 233.

5 - عائلة الفيلالي[1] في أروان وتنبكت وجني وقندام وجاو[2].

6 - عائلة البلبالي[3] استقرت في مدينة تنبكت، وفي كانوا وكشنه[4].

7 - عائلة محمد الفاسي[5] نزحت من فاس، واشتغل أبناؤها هناك بالتعليم.

لقد حدثت مصاهرات بين المغاربة وأهالي السودان الغربي، وارتبطوا معهم برباط الدم؛ فقد أورد كعت زواج الشريف الحسني أحمد الصقلي في تنبكت، من امرأة عربية من أهل تافلالت، تدعي زينب ، فولدت له مزوار ومحمداً وسلمان ورقية وزينب[6].

هذه حالة من الآف الحالات، تدل على عمق الروابط، كما كانت في منطقة السودان الغربي، عدد من القبائل المغربية تقطن عدداً من المدن والقرى هي بكوى ويبكين، وطوتل، ويكرم، وبانكند وبُدمُب ـ والتي أوعز لها السلطان منصور الذهبي تزويد الحملة بالمؤن، وخص كل واحد من سكان هذه المدن بنوع من التموين.

أما في زمن دولة سنغاي.. فقد استمر الدور نفسه للمغرب، فارتادها العلماء والفقهاء والتجار، وكانت لهم أحياء خاصة بهم في كبرى مدن السودان الغربي، في تنبكت وجني وجاو وأقدز وغيره . وكان ساسة وعلماء السودان الغربي على

---

(1)- اجتمعت بعدد من أفراد أسرتها في تنبكت وجاو وجني وقندام وأروان، وأخبروني بأن أجدادهم قدموا من المغرب.

(2)ـ نفسه ، ص: 306 233 308.

(3)- استقرت في مدينة تنبكت، وفي كانوا وكشنة، وكان جدهم الأول يدرس في فاس ومراكش، التقيت ببعض أفرادها بمدينة تنبكت في صيف عام1987، وأخبروني بقدوم أجدادهم من المغرب .

(4)- محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 70.

(5)- لقب الفاسي كثير في منطقة السودان الغربي، وجد في جاو وتنبكت وجني وأقدز وقندام وطاوة كني ودوس ولري، وغيرهم من مدن السودان الغربي، قابلت عدداً منهم في هذه المدن السالفة الذكر، وأخبروني أن أجدادهم قدموا من المغرب.

(6)ـ محمود كعت ،المصدر السابق، ص 23 .

اتصال دائم بالمغرب الأقصى، يتتبعون أخبارهم، وماستجد فيها. وكان أحمد بابا التنبكتي على رأس هؤلاء العلماء، الذين كانوا على شوق لتتبع أخبار المغرب، وكان له أصدقاء في المغرب، ولاأستبعد أن تكون له زيارة سبقت مجيئه للمغرب، في عهد السلطان المنصور الذهبي. وهذه المراسلة تكشف لنا النقاب عن ذلك، علي الرغم من عدم وضوحها في كثير من مواضعها، وهذا نصها : «الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد، وبعد فبسلام لايبارى ولايباهى وتحية لاتجارى [بياض] وكاتبه عبد الله [بياض] إلى سيدنا وابن سيدنا الفاضل الأجل المحترم [بياض] المكرم الهمام بن الهمام الشريف الحسني قاضي القضاة سيدي أحمد بابا بن أبي العباس، السلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وإن سألت عنا كما يكفي السؤال عنك وعافية، ونعمة ضافية وموجبة إليك ياسيدي أني رأيت لسيدي [المكانة][1] المعظم المحترم مع جوابك الأعز ووجدني الجاه على جناح السفر [بياض] موته عيالي، ورسلت كتابًا من نفس لصاحب الخطاب [بياض] على آخر ذي الحجة وتمثل معه [بياض] أن يسره الله ومكثه إن شاء الله [بياض] اليوم في طيف لايعرفون أين مسكنهم لأن تافلالت هي التي كانت سكنتهم وقبضوها [بياض] في علم العرب المغاربة اليوم، في طيف لايعرفون أين مسكنهم، وتكلمت مع بعض العرب المغاربة، الذين كنت نتكلم معهم فإذا هم إن شاء الله أقرهم [بياض]، إن أمتنع منعم سوق تافلالت لابد يخرجون التراب أو يحكّمون أيديهم رغم أنوفهم، وحاصل الأمر إن شاء الله في آخر ذي الحجة أو أول المحرم [بياض] أطلب من الله التيسير، وأما أمر الرقبات فإنهم أعطوني الخبر، ولكن رأيتهم [بياض] ليس أحد منهم يحكم في [بياض] لعظم دولتهم وكثرة فسادهم، وقلت لهم إن كان هذا أحق عندكم [بياض] معها لازداد [بياض] ازواد يعطوكم آل ازواد دياتكم تطالبهم بهم [بياض] بذلك بعضهم والبعض مارأيته الى الآن، ونرجوا من الله تبارك وتعالى أن ييسر الأمور، ونحن والله مالنا علم سوى هذه الأمور، ولكن مسلم على أهل ازواد أولاد البربيش، وقل لهم نجد

(1) ـ المكان.

[بياض] في الرقبات [بياض] سيدي محمد [بياض] مع أولاد الساحل لحارسه وليس لهم حكم»[1].

شهدت مملكة سنغاي بعد إقصاء السلطان أسكيا الحاج محمد من الحكم على يد ابنه حالة من التصدع في العلاقات داخل البيت الحاكم، ترتب عنها انعكاسٌ على الحالة السياسية والاقتصادية للمملكة، وظهر التناحر الدموي بين أبنائه لغرض السيطرة على الحكم ، وبدأ التدهور يظهر في أمور الدولة، وحدث التمرد من أمراء المقاطعات والقبائل، وظهر الانحلال الأخلاقي، وقال : صاحب الترجمان بأن حالة من الفوضى، كانت عليها السودان الغربي بظهور التمرد من أمراء المقاطعات وكثرة الحرابة، وقتل الأنفس دون وجه حق، واختل الأمن وتمرد رؤساء القبائل، فأول من بدأ بذلك (سنب لمدُ) صاحب (دنك) بأن قتل عدداً لايحصى من أهل البلاد، من أصحاب رؤوس الأموال، وأكل أموالهم وسبا عدداً من الحرائر · ثم تمردت قبيلة الزغرانيين، بأن خربوا بلدة (بر) وبلد (درم)، وأهلك أرض جني (كفابنبر)، وعاثوا في الأرض فساداً، ومن منكرهم تناسلهم مع أصحاب الديانة الماجوسية في مدينة جني، فخرجوا أولادهم مجوسًا، وفسدت عدة مناطق، وتمردت قبائل الفلان على النظام السياسي، عندما أحسوا بضعفه من جراء الصراعات الداخلية، كما فسدت أخلاق عدد من حكام السودان والعامة، فكثر فيها شرب الخمر والزنى، ومسائل يندى لها الجبين![2].

ومعنى هذا أن المنطقة تعاني من فوضى سياسية، واقتصادية، واجتماعية، والأمر يحتم على الدول القريبة منها أن تأخذ زمام المبادرة، وتخرج هذه المنطقة من الفوضى، بعد أن فشل أبناؤها الخروج بها إلى دائرة الأمان·

(1) محمد البشير بن العبيد، يبعث برسالة إلى سيدي أحمد بابا بن العباس التنبكتي، تتناول أحداثًا في المغرب، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 2498 ورقة 1 .

(2)ـ محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10 - 11 وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص143 - 144 ·

من خلال هذه المعطيات، وجدت المغرب متمثلة في الدولة السعدية ، أمام الأمر الواقع لإنقاذ مايمكن إنقاذه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خشت الدولة السعدية أن تنعكس هذه القلاقل على المغرب، خاصة وأن الأخطار محدقة بالمغرب من الإسبان في الأندلس، والأتراك في تلمسان، وحرس المغرب في التدخل في المنطقة استبعاد فتيلة الشر بتفويت الفرصة على الإسبان والأتراك من التدخل في منطقة السودان، باستنجاد أحد حكام المنطقة بها، وبذلك تصبح المغرب بين فكي رحى فكانت مبادرة السلطان المنصور الذهبي مبادرة شجاعة وحكيمة إلى الغاية، حسب وجهة نظري. وكما يقول المثل "إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب" .

والسؤال المطروح :

هل كان للمنصور الذهبي نية للتدخل في السودان الغربي؟ .

لم يكن للمغاربة حتى قبل الدولة السعدية نية للتدخل في المنطقة، فملاحات تغازة، التي يرجع جلّ المؤرخين أسباب تدخل المغرب في السودان إليها، معروفة لديهم منذ زمن غانا، والمغرب في تلك الفترة والفترات التي تلتها على درجة من القوة تمكنهم من السيطرة على المنطقة بسهولة ويسر، ولو كانوا لهم نية التدخل، فإن ذهب ونقاره وبنبوك معروف لديهم هو الآخر .

فتدخل المنصور الذهبي في السودان الغربي كان مرده إلى حالة الفوضى، التي عرفتها المنطقة، بعد وفاة أسكيا داوود .

لقد كانت لديه مراسلات وتبادل هدايا بينه وبين أسكيا داوود .

الإرهاصات الأولى للحملة :

لست بصدد الحديث عن الحملة المغربية على السودان الغربي بتفاصيلها وأبعادها، فهذه دراسات مستقلة بذاتها، كتب فيها عديد من الباحثين أمثال الدكتور محمد الغربي وغيره. ومازال الباحثون يواصلون الكتابات في هذا

المجال، وعلى سبيل المثال لا الحصر، الباحث المغربي أيت امبارك، والذي يهمني من ذلك الحضور المغربي في السودان الغربي، وهل كان له دور في المنطقة؟ وكذلك أسباب ودوافع الحملة، وهل هي نهب لخيرات السودان كما يقال ؟

كذلك سوف نتناول الحملة من وجهة نظر مؤرخي السودان الغربي فقط، كانت أولى المبادرات بعد وفاة السلطان مولاي عبد الملك عام 985 هـ/ 1577م، وتولي السلطان أحمد الذهبي أمر المغرب.. فقد بدأ يسعى إلى توطيد أركان دولته من الأخطار المحدقة بها، فكانت أولى اتصالاته، ببلاد السودان الغربي زمن حكم أسكيا داوود، حيث بعث السلطان أحمد الذهبي بوفد إلى أسكيا داوود، يطلب منه أن يسلم له خراج معدن تغاز لمدة عام واحد؛ فاستقبل أسكيا داوود الوفد بكل حفاوة وتكريم ، وأرسل للسلطان المغربي عشرة الآف ذهبًا هدية وعطية، فتعجب أحمد الذهبي من سخائه، وجود كرمه، فكانت تلك الهدية سبب المودة بينهم، وعندما توفي أسكيا داوود، وسمع به أحمد الذهبي، حزن لموته أشد الحزن، وجلس في قصره للتعزية، فعزاه كبار قادته وجنوده في فقد صديق له.

وهنا سؤال يطرح نفسه :

لماذا اتخذ أسكيا داوود هذا الأسلوب الدبلوماسي مع وفد المنصور؟ هل فعلاً كما يقال سخاء وكرم؟ أم مراوغة وتعطيل التدخل المغربي، حتى يستعد لهذا الأمر؟ أم أن أسكيا داوود على معرفة بقوة المغاربة، وأسلحتهم التي لم تكن معروفة لديهم، الأمر الذي لا يستطيع معه المقاومة ؟أم ماذا؟.

من خلال العرض يتضح أن عملية إكرام الوفد، والهدية التي منحها إلى أحمد الذهبي، استخدم فيها أسلوب الدبلوماسية والمراوغة؛ لأنه لا يعقل أن يأتي وفد محمل برسالة من السلطان أحمد الذهبي إلى السلطان أسكيا داوود، ويطلب منه تسليم خراج ملاحة تغازة لمدة سنة، وكل منهم يعتبر نفسه أمير المؤمنين في بلاده، ومن حقه حماية مكتسباته بأي طريقه كانت. ولكن في الوقت نفسه

الكيس من عرف خصمه وإمكانياته، قبل أن يتصرف تصرفًا، يجر عليه الويل مثلما فعل أسكيا إسحاق.

فمن وجهة نظري لم يكن الأمر كرماً وسخاء من أسكيا داوود، بقدر ما هو تحوطات أمان؛ لأنه على ما يبدو على معرفة تامة بقدرات خصمه، وهو بذلك غير قادر على مواجهته بالقوة، لأنه لايملك السلاح الذي يمتلكه خصمه. ومن هنا أدرك أن حل التودد والصداقة هو الحل الأكثر ملاءمة، وفعلا نجح في ذلك، بأن أعطاه ما يعادل خراج تغازة سنة في سبيل سلامة بقية المكتسبات، بما فيها ذهب ونقارة، وروح أسكيا داوود وأتباعه.

بعد وفاة أسكيا داوود، تولى أمر سنغاي أسكيا إسحاق، وبدأت تطلعات المغرب من جديد نحو السودان الغربي، الذي أصبح يشكل خطورة عليه. وقبل الشروع في إرسال الوفد، استفتى السلطان أحمد الذهبي علماء وأشياخ الفتاوى في بلاده، في أحقية وضع يد الإمام على معادن السودان الغربي، فأفتوا له من أن النظر في المعادن مطلقًا إنما هو للإمام لا لغيره، وأنه ليس لأحد أن يتصرف في ذلك إلا عن إذن السلطان أو نائبه، وبعث السلطان مولاي أحمد بتلك الفتاوى مع رسالة، يدعوه فيها إلى تنظيم ملح تغاز بين المغرب والسودان، بأن يحمل الملح إلى أقطار السودان للواردين عليه مثقالين من الذهب العين لكل حمل، وتستعين بذلك الخراج عساكر المسلمين على جهاد الكفار؛ فأجاب أسكيا إسحاق أن الأمير أحمد الذهبي، أمير ناحيته وهو أمير ناحيته، وبذلك لم يسعف أسكيا إسحاق فيما طلب، وسلم الوفد جوابه مع حريشاناً ونعلين من حديد، وآخر الوفد بتأخير الرد على جوابه.

وصل الوفد المغربي الى السلطان الذهبي وسلمه الهدية، وأعلمه بما جرى بينه وبين أسكيا إسحاق من حديث، فجمع الذهبي، أعيان دولته وأهل الرأى والمشورة، وأخبرهم بالأمر وكان يوم اجتماعهم يومًا مشهودًا، وأشاروا عليه بالتدخل في السودان الغربي[1].

(1) موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 113-114، ومجهول تاريخ الزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 4.

بعد رحيل وفد السلطان المغربي عن سنغاى، أرسل السلطان أسكيا إسحاق ألفين من الطوارق، وأصدر لهم الأوامر بأن يغيروا على أخر بلاد درعة إلى جهة مراكش، دون أن يقتلوا أحدا فغاروا الطوارق على سوق (بني صبيح)، وأخذوا كل ما فيه من السلع، ورجعوا كما أمرهم[1].

والسؤال المطروح :

لماذا أخر اسكيا اسحاق رسول السلطان المغربي؟ ولماذا وقع اختياره على الطوارق بالذات لتنفيذ هذه المهمة؟.

للإجابة عن هذا السؤال الذي يتكون من شقين، نورد الآتي :

الشق الأول :

1- استخفاف بمطالب خصمه.

2 - تعمد التأخير لأخذ متسع من الوقت؛ للتشاور مع قادته وأصحاب المشورة.

أما الشق الثاني:

1- إظهار قوته أمام خصمه بتهديد أراضيه.

2- شجاعة الطوارق المفرطة، ومعرفتهم بالهجوم الخاطف والعودة بسرعة.

3- إظهار أسكيا إسحاق لخصمه أن قبائل الطوارق تحت سيطرته، وأنه يستطيع استخدامهم حيثما شاء.

ولنرجع إلى حديثنا إذًا، منذ تلك الفترة بدأ السلطان الذهبي يعد العدة فما جاءت سنة 997هـ/ 1569م، إلا وكان الجيش جاهزًا تحت إمرة قواده، وفي اليوم السادس عشر من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين وتسعمائة 998هـ / 1589م، تحركت القوات من مراكش، التي بلغ عددها اثنين وعشرين ألف رجل، منهم ألفٌ من المعلمين المتطوعين بأنفسهم، ونزلت القوات بوادي

(1) - مجهول، تاريخ الزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 4، ومحمد السالك بن حني التنواجوي، فوائد من غابر الأخبار في تاريخ الدول وأصول الأنساب ، مخطوط ، ورقة 36 ـ

تانسيفت تحث قيادة الباشا جودر، يساعده جماعة من خيرة أعيان الدولة. وفي المحرم بداية سنة تسع وتسعين وتسعمائة 999هـ/ 1590م تحركت القوات، بعد أن حمل الذهبي قائدها بجملة من النصائح ورسالتين :

الأولى : إلى سيدي محمد بن أد.

الثانية : إلى قاضي مدينة تنبكت عمر بن الشيخ محمود بن عمر ابن أقيت

فحوى الرسالتين : يأمرهم بلزوم الجماعة، وخص الذهبي بن أد في رسالته بعبارة "فانظر حال السلطان وصلاحه سبحان من خص من شاء بما شاء"[1].

وأصدر أوامره لقائده جودر إذا ما لقي الولي الصالح الشيخ سيدي أحمد ابن أد، أن يستشيره في حال دخوله فإنه ولي القطر[2].

ولكن لماذا ركز المنصور على هاتين الشخصيتين، دون سواهما من أبناء السودان الغربي؟ ولماذا اختار جودر باشا إلى قيادة الجيش؟

كان التركيز عليهما لسببين همَا :

1- أن عائلة بن أد لها وزنها الروحي في المنطقة، فأهالي السودان يتبركون بهم ، ويسيرون وفق تعليماتهم، فكسب المنصور لهم يعتبر كسبًا للناس جميعًا.

2- القاضي في السودان الغربي له مكانة متميزة بين الحكام والأهالي، فهو محل ثقة ومشورة، ومن خلال رسالة المنصور نجده يأخذه باللين والهيمنة الروحية، وكلمة يأمره تعني أن المنصور الإمام الروحي، وأبو حفص تابع له روحيًا، إذًا الخطاب من الأعلى إلى الأسفل، يأمره بملازمة الجماعة، ولذلك أمره مُجاب.

---

(1) محمود الأراوني، الترجمان، مخطوط ورقه9، ومجهول، جواهر الحسان في تاريخ أروان، مخطوط مكتبة محمد بوبو بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 10.

(2) مجهول، جواهر الحسان في تاريخ أروان، مخطوط ورقة 10.

أما بخصوص اختيار جودر. . فقد أورد كعت أنه جاء، بناءً على معطيات متمثلة في شخصيته الفريدة، وذكائه المفرط[1].

ولكن هذا في نظري لا يكفي وحده لقائد يخوض غمار حرب في الصحراء، ما لم يكن عارفًا لمجاهلها. وعلى مايبدو، كان على اتصال ومعرفة بطبيعة الصحراء، من قبل أن تصدر إليه الأوامر بقيادة جيش المنصور، وأفاد القشتالي بأن جودر هو الذي قاد جيش المنصور عند فتحه توات وتيكورارين[2].

الحملة المغربية فى نظر السودانيين :

أورد عدد من مؤرخي السودان الغربي معلومات، عن الحملة المغربية وسيرها؛ فقد أورد صاحب الترجمان أن الحملة بقيادة جودر، انطلقت من واد تانسيفت وسلكت طريق الكلاد ثم درعة، ودخلت الفيافي والقفار، حتى وصلت إلى تغازا، ثم إلى (تليك)، وقد حفروا بها آبارًا للتزود بمياه الشرب، ومن بعد سارت الحملة إلى تودن، ومنها إلى تنبكت، وقد استغرق زمن الحملة مائة مرحلة، وفي ضحى عام999 هـ/ 1590م وصلت إلى مدينة تنبكت، فاستراحت بها أيامًا، وغادرتها صوب جاو بقيادة جودر؛ بقصد تأديب أسكيا إسحاق، وعندما علم بمقدمهم، حشد لهم من أمم السودان مائة آلاف !، ومن الطوارق أربعة آلاف، وكانت أسلحتهم السيوف والرماح، والحراب، والتقى الجمعان في منطقة تندبي[3].

وقفت في صيف عام1987 م وأنا في طريقي إلى مدينة جاو على أول مكان حدث فيه صدام بين جودر، وأسكيا إسحاق في تندبي، فقمت بدراسة لأرض

---

(1) - محمود كعت، المصدر السابق، ص149.

(2) - القشتالي، المصدر السابق، ص 159.

(3) - محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10 ـ11، وسيدي محمد الهادي، الحقوق الاجتماعية للعبيد، مخطوط ورقة 24، ومحمد السالك بن حني التنواجوي فوائد من غابر الأخبار، مخطوط، ورقة24، ومجهول حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، مخطوط، ورقة 15.

المعركة في عين المكان، وهي عبارة عن أرض منبسطة، تتخللها أحراش، يشرف عليها من الجنوب سفح جبل طويل، بلغت مساحتها حوالي 2 كم .

بدأت المعركة من الضحى إلى العصر بين الطرفين، وكانت غير متكافئة من حيث التسليح، انهزم على أثرها جيش أسكيا إسحاق وفر أسكيا، عبر نهر النيجر، ولحق به محمود بن زرقون مع عسكره إلى أن أدركه، وأخذ كل ماعنده من المال، وغيره، وهرب أسكيا إسحاق إلى الصحراء، حيث مات هناك[1] ومازال إلى يومنا هذا، المكان الذي مات فيه أسكيا إسحاق معروفاً لدى أهالى جاو . والمكان يقع إلى الشمال الغربي من المدينة، يبعد عنها بحوالي مائة وخمسين كيلومتراً، مررت عليه وأنا في طريقي لمدينة تنبكت[2].

أورد كعت على أن أول صدام بين جيش المنصور وجيش أسكيا قائلاً : "ورأيت بخط الفقيه الإمام أبي بكرسُ بن عمر أن القتال بين أسكيا إسحاق وأهل مراكش في سُنكى، في طرف تندبي، ضحى الثلاثاء سادس عشر جمادى الأول عام تسعة وتسعين وتسعمائة. . . أن أول القتال والمضاربة بينهما كان في سُنكى. . . ولما فسد أمر سنغى. . . "[3].

من خلال النص السابق. . يتضح وجهة النظر السودانية في ترحيبهم بالحملة من عدمها، ونلمس من عبارته "ولما فسد أمر سنغى بمعني" أن الحملة جاءت، لتصلح ما فسد من أمر سنغاي .

أما صاحب الترجمان، فله رأى في الحملة بأن وصفها بالجهاد، وإعلاء الكلمة وهذا يدل عن رضائه التام، عن الحملة، وأنها جاءت لتغيير واقع متدنٍ، من فساد سياسي، واقتصادي، واجتماعي، حتما على السلطان المغربي التدخل لإصلاح مافسد .

(1) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 11. ومجهول حديقة البستان على تواريخ أهل أروان، خطوط، ورقة 15.

(2) انظر الملحق، ص 18.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص 152.

وقد أورد صاحب الترجمان ما نصه : "واصل الباشا محمود بن زرقون الجهاد وإعلاء الكلمة، حتى دان له الخلق، وخضعت له البلاد في عامين"[1].

أما صاحب مخطوط حديقة البستان فإنه هو الآخر اعتبر حملة المنصور نقطة تحول في تاريخ المنطقة من سيء إلى أحسن[2].

وقال فيهم عبد الرحمن السعدي، رماهم الله بجيش جودر فاجتثهم من عروقهم[3].

وقد رحب عدد من أهالي السودان الغربي، بمقدم الحملة، وقال فيها الشعراء شعراً، مدحوا فيه المنصور، ومن هؤلاء الشعراء الشاعر والعالم عبد الله ابن سيدي مولود فال، من أبناء مدينة تنبكت، ولد عام 957هـ/ 1550م بمدينة تنبكت، وقد برع في الشعر، ارتجل قصيدة في حق السلطان المنصور، عدد أبياتها ثلاثة وثلاثين بيتاً، نورد بعض الأبيات، وهي :

بمقدم وفد النصر حل بنا البشر

وأشبعت الأرواح وانشرح الصدر

بمقدم هذا الوفد يا مرحباً به

تراقصت الأكوان وانشرح العمر

فيا مرحباً حقاً ويابشر به

لقد كمنا فيض كما أجبر الكسر

فأرض بها المنصور حل جديره

يفخر وله الإمام لها فخر

(1) - محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 11.

(2) - مجهول حديقة البستان ، مخطوط ورقة 16.

(3) - عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص ص 143-144.

تربع فوق الحمد لله ساجداً

من أوصافه التسبيح والصبر والذكر

كفاه بأن الشيخ أعطاه سره

تشرب من بحر المحبة ناهلاً

وذلك بحر ليس في شربه كدر

وحاز لواء سراً وظاهراً

وكان دوام السر ديدنه الصبر[1]

رجع محمود بن زرقون من جاو وترك بها جودر، وعند وصوله إلى (تنبكتت) شيد قصبة وأسكن فيها الرماة، وجعل عليهم المصطفى، وأرسل نصف الجيش للسلطان مولاى أحمد الذهبي، مع هدية عظيمة فيها من الذخائر ما لايحصى، وهي: ألف ومائتان من أفضل الرقيق جواري وغلمان، وأربعون حملاً من التبر، وأربعة سروج ذهباً، وكتب له بفتح بلاد السودان[2].

ولكن هل أرجع الباشا محمود بن زرقون نصف الجيش مع الهدية إلى السلطان منصور الذهبي؟

من وجهة نظري هذه المعلومة مستبعدة، وذلك لعدة أسباب، وهي :

1 - أنه لايعقل أن يرجع نصف الجيش المغربي في بداية فتوحاته عن أرض السودان الغربي.

2 - أن وصول الجيش المغربي للسودان الغربي كلفه خسائر بشرية ومادية. فكيف يسمح الباشا محمود بإرجاع نصفه؟!

---

(1) - عبد الله بن سيدي مولود فال التنبكتي، قصيدة في مدح المنصور الذهبي، عند مقدم جيشه للسودان، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتى، رقم 1969،

(2) - محمود الأرواني، الترجمان، ورقة 11.

3 - إذا كان إرجاع نصف الجيش بقصد حماية الهدية من قطاع الطرق؛ فهذا العدد لايعقل أن يسخر لحماية هدية فكتيبتان قادرتان على الحماية.

4 - حسب وجهة نظرى أن ورود هذه المعلومة من طرف مؤرخ سوداني، هو القصد منها الإشارة إلى كمية الخيرات التي نقلها المغاربة من السودان إلى المغرب، وكأنه يريد ان يقول إنه استنزاف لاقتصادهم، وحتى يضخم الحالة قال بعث مع الهدية نصف الجيش !

وأورد كعت أن بعد هذه الانتصارات، عاث القائدان المغربيان جودر ومحمود في أرض السودان فساداً ! إلا أنهما تخوفا من فسادهما أن يجر عليهما ثورة شعبية، فلجأ إلى تهدئة الأجواء، وترتيب صفوفهم باستمالة العلماء والفقهاء، وهم وحدهم الذين لهم تأثير على الأهالي، فأرسلا القائد مامي إلى بيت القاضي عمر واستأذن عليه بالدخول؛ فدخل وقبل رأسه وركبتيه وقدميه ويديه! ثم التفت إلى الفقهاء وحياهم، وسلم عليهم، وجلس أمام القاضي، وفي هذه الأثناء كان رجال القاضي واقفين على الدور، شاهرين أسلحتهم تحسبًا لاي طارئ .

تحدث القائد مامي إلى القاضي والحاضرين بأن الباشا محمود وكافة الكواهي يقرئون لكم السلام، ويقسمون لكم أن ما أقدم عليه السفهاء من رجالنا برجالكم دون علمنا، وأتيت إليكم راجيًا الصفح عما بدر من رجالنا، ومنذ الآن نبدأ صفحة جديدة من السلام والوئام بيننا، فاستبشر القاضي عمر والحاضرين خيراً، وبعث محمد بغيغ للحرس، الذي على جامع سكنري بالنزول، وعدم الاستمرار في الترصد، وأن الأمور على ما يرام، فأظهر القائد حسن النية بأن قطع رأس أحد اتباعه، عند عودته من عند القاضي عمر لحظة دخوله الى القلعة، ووجد مجموعة من أتباعه يضربون سودانيًا فضرب رأس أحدهم عربونًا على مصداقيته، وكان وقع هذه الحادثة على الناس خيراً، وانعكست على أصحاب الحرف والتجار، فخرجوا يزاولون أعمالهم في طمأنينة، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً،

فبعد رجوع الباشا محمود بن زرقون بجيشه من رأس الماء، في شهر فاتح المحرم سنة اثنتين وألف 1002هـ/ 1593م، عادت النوايا السيئة، والمكر من جديد إلى القائد محمود، فطلب تجديد البيعة للسلطان في مسجد سنكري، وعندما اجتمع أهل تنبكت في المسجد، وكان على أبوابه الرماة، أصدر الباشا محمود اوامره لزبانيته بوثق العلماء بالسلاسل، وأخذهم إلى القصبة التي تبعد كثيراً عن المسجد، باستثناء القاضي عمر، حمل على حماراً ومعه شواشينه ونساءه وأطفاله وفي الطريق اشتد المرض بالقاضي عمر يومين، وشفاه الله، وكان مع الجمع أسرة أقيت بما فيهم أحمد بابا.

عقب هذه العملية، بعث الباشا محمود بن زرقون بكتاب إلى السلطان المنصور الذهبي نصه «وليعلم أمير المؤمنين السلطان بن السلطان مولانا أبا العباس أحمد الله بنصره ويخلد ملكه، أننا ما قبضنا هؤلاء الفقهاء القاضي عمر وإخوانه وأتباعه إلا أن ظهر لنا ما في نفوسهم، من عداوة السلطان وبغضه، وتحققنا أن قلوبهم مع أسكي وهم على كيدهم، ويجمعون لهم الرجال لمحاربتنا، متفقين على الفساد، بعد أن قتلوا من جيش السلطان ثلاثة وسبعين رجلاً، ومنه شهادة جل أعيان تنبكت وكبرائها على ذلك»[1].

واستطرد كعت أن القائد محمود طلب من القاضي محمد بغيع أن يكتب شهادته خلف هذه الأسطر، إلا أن القاضي امتنع على ذلك؛ لأن الخبر لا أساس له من الصحة، وقد توعده الباشا محمود بقطع يده، إن لم ينفذ ما طلب منه، إلا أنه قال له قطع اليد أفضل أن تكتب شيئاً زورا وبهتانا، وفي الوقت نفسه كانت هناك مجموعة من الفقهاء انجروا خلف الباشا محمود، ووقعوا على ذلك منهم أسكيا الفع بكر لنبار[2].

وفي الحقيقة ماأورده محمود كعت حول هذه المعلومة، يعتريه شيء من

(1) - محمود كعت، ص176.

(2) - نفسه، ص ص 172-176.

المغالطة التاريخية، ومحاولة تشويه مسيرة المغاربة في المنطقة. فقد ذكر أن القائد محمود أحضر العلماء إلى جامع سنكري وأوثقهم بالسلاسل، وأخذهم إلى القلعة التي تبعد كثيراً عن المسجد، باستثناء القاضي عمر، حمل على دابة ومعه شواشينه، وفي الطريق اشتد المرض بالقاضي عمر يومين!

ومن خلال الدراسة الميدانية عام 1987 للمكان الذي يتكلم عنه كعت، نتبين أن ماذكره لا أساس له من الصحة، فالمسافة بين جامع سنكري وقصبة المغاربة ثلاثمائة متر فقط، وهذا ليس غريبًا على كعت، فالدارس لكتابه يجد فيه جملة من المغالطات التاريخية.

إلا أننا لاننفي وجود بعض التجاوزات عند بعض قادة الحملة وجنودها تجاه الأهالي، وهذه قصيدة نظمها أبو القاسم بن محمد، وهو من أبناء السودان الغربي، في جور بعض قادة الحملة، وقد أكملها عام 1079هـ/ 1668م.

إليّ احكم شكيت ضعفي وفاقتي

وماقد جرى به القضاء والدرادتي

فيارب إن القوم صالوا بكرهم

علينا ولالنا سواك إنما نتى

فكم من عسر أبدلت باليسر إن تشاء

فما شك في ضد يده المقالتي

فكم من سجين مثلنا ضاق أمره

فخلصته من كل هم وشدتي

إلى أن قال : تم هذا التوسل المبارك بحمد الله وحسن عونه لأبي القاسم ابن محمد بن ابي القاسم بن لانحاف تامه، في اليوم!! من شوال، عام تسعة وسبعين وألف[1] 1097/1668.

(1) أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن لانحاف، قصيدة في التوسل، مخطوط مكتبة عادل الأرواني بتنبكت، دون تصنيف.

وقد تذمر من هذا الإجراء أحد قادة المغرب، في السودان الغربي المدعو أحمد الحداد، وذهب خفية عبر مدينة ولاته، إلى مراكش، وأخبر السلطان المنصور بتصرفات الباشا محمود، وغضب المنصور أشد الغضب، وتأسف على ما حصل نظراً لأنه يحب العلماء، والصلحاء، وأرسل القائد منصور بن عبد الرحمان إلى السودان، وأعطاه فرمان بعزل محمود، وتحرك القائد منصور ومعه ثلاثة الألف ومائة ما بين أرباب خيل وراجل، وعند وصوله لتنبكت علم بموت محمود وتولى القيادة جودر، كان ذلك يوم الخميس أول يوم من رجب، عام ثلاثة بعد الالف 1003هـ/ 1594م .

وقد استقبل جودر القائد منصور بكل حفاوة! تولى بعدها القائد منصور القيادة وتحرك صوب أرض (الحجر)[1] وهناك نازله أسكيا نوح في حرب، لم تدم طويلاً انهزم على إثرها سلطان سنغاي، وتشتت جمعه، وسبا الذكور والإناث والمؤن.

وقد بعث القائد منصور برسالة إلى السلطان منصور الذهبي عقب انتصاره على أسكيا نوح في أرضي الحجر ـ عثرت عليها في مدينة تنبكت، وعلى الرغم من أنها مبتورة، إلا انها تكشف بعض الأضواء- نصها :«الحمد لله وحده والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه من متولي أمر جنده مولاي أحمد الذهبي، المتوكل على الله الفاتح بأمره، المؤيد بنصر الله، أبو الفضل والوقار، أبو اليتامى والمساكين، كنز الفقراء والضعفاء، الأسعد الميمون الخليفة الأرشد صاحب السعادة الباشر [غير واضحة] القائد [غير واضحة] العامل منصور بن القائد [غير واضحة] على امبارك الدرعي[2].

---

(1) الحجر أرض منبسطة، تقع الى الجنوب من مدينة تنبكت، كانت مسرح الأحداث وصراعات بين المغاربة والسودان، مررت عليها وأنا في طريقي من جاو الى تنبكت.

(2) الباشا منصور أعتقد أنه عبد الرحمان على امبارك الدرعي، عامله على السودان، يبعث برسالة إلى السلطان منصور الذهبي، مكتبة جبريل دكورى، بتنبكت دون تصنيف، ورقة واحدة، لا أدري هل كانت هذه الرسالة من نسختين: إحداهما بعث بها للسلطان المغربي، والأخرى احتفظ بها.

تكشف لنا هذه الرسالة، على الرغم من أنها مبتورة، وحرمتنا من معلومات نحن أحوج ما نكون إليها. . إلا أنها بينت لنا عدة أمور، وهي :

1 - الديباجة التي تكتب بها المراسلات من الحمد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2 - اعتمد صاحبها عبارات التذلل للسلطان الذهبي والمدح والثناء عليه ووصفه بصفات الفضل والوقار.

3 - تكشف لنا الرسالة أن المراسلات كانت تكتب في أوراق صغيرة وأعتقد أنه من جانب أمني؛ فالورقة الصغيرة يستطيع صاحبها إخفاءها، إذا ما شعر بأي خطر .

إلا أن المنية عجلت بوفاة الباشا منصور بن عبد الرحمان، عقب هذه المعركة، في السابع عشر، خلت من ربيع الأول عام خمسة بعدالالف 1005هـ/ 1596م، وأصبح القائد جودر مرة أخرى قائداً للجيوش المغربية.

عندما تناهت أخبار وفاة الباشا منصور إلى أسماع السلطان المنصور، أرسل الباشا محمد طابع بحملة قوامها ألف رجل، من بينهم أرباب الخيل وغيرهم، فوصل إلى تنبكت يوم الاثنين لتاسع عشر من جمادي الأول عام ستة وألف 1006هـ 1597م فانتزع الحكم من جودر، غير أنه مالبث قليلاً حتى توفي، وعاد الحكم من جديد إلى الباشا جودر[1]! .

ولكن ما السر من وراء وفاة جل القادة الذين بعثهم السلطان المنصور الذهبي للسودان الغربي، وبقاء جودر على قيد الحياة ؟ .

على ما يبدو أن مجيء جودر كأول قائد في السودان الغربي، أكسبه علاقات متميزة مع جيش وأهالي السودان الغربي، بالإضافة إلى الدهاء والمراوغة الذي وصف بهما، ولولا الدهاء الذي كان عليه لما اختاره السلطان المغربي، أول قائد لجيشه في السودان الغربي.

(1) محمود الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 10.

استخدم جودر هذا الدهاء، والعلاقات، وأخذ يصفي خصومه في السلطة بتدبير المكائد والحيل باسم القادة إلى أن شعر بخطره السلطان الذهبي، وطلب منه الرجوع إلى المغرب، إلا أن الباشا جودر قدم له صورة الموقف العسكري في السودان الغربي، بطريقة مروعة تجعل من السلطان الوقوف عندها، فقد أخبره بأن الموقف لا يتحمل مجيئه؛ لأن الأخطار محدقة به من كل جانب، فقائد ماسنه يحاول ضرب الجيش المغربي، وسلطان ملي تحرك بقواته صوبه، وهو يعلم أن السلطان الذهبي ليس لديه دراية بالموقف السياسي في المنطقة .

فعلاً حشد صاحب ماسنه، وصاحب ملي جيشاً وأراد غزو مدينة جني، وتصدى لهم القائدان على عبد الله التلمساني ومصطفى الفيل، وأبطلوا محاولتهما وانتصروا عليهما، وكان ذلك ضحوة الجمعة آخر يوم في شهر رمضان، عام ألف وسبعة 1007هـ/ 1598م.

أورد صاحب الجواهر الحسان، من وجهة نظر إفريقية، عدد الباشوات الذين تعاقبوا على السودان الغربي في فترة السعديين، وهم:

1 - الباشا جودر.

2 - الباشا محمود بن زرقون.

3 - الباشا محمود الطابع.

4 - الباشا محمود لنْك.

5 - الباشا محمود بن أحمد.

6 - الباشا مسعود بن منصور.

7 - الباشا محمد بن محمد بن عثمان.

8 - الباشا محمد بن موسى.

9 - الباشا محمد بن القائد أحمد.

10 - الباشا يوسف بن عمر.

11 - الباشا جد بن يوسف .

12 - الباشا محمد بن أحمد .

13 - يوسف بن عمر .

14 - إبراهيم بن سعيد .

15 - علي بن عبد القادر .

16 - علي بن امبارك .

17 - مسعود بن أحمد .

18 - عبد الرحمان بن القائد حمد بن مسعود بن علي .

19 - مسعود بن منصور .

20 - محمد بن عثمان .

21 - أحمد بن علي بن عبد الله .

22 - حميد بن عبد الرحمان .

وتجدر الملاحظة أن الذين تعاقبوا على حكم السودان مائة وأربع وخمسون باشا، هذا مع تكرارهم. أما من غير التكرار فعددهم سبع وتسعون باشا، وعدد الذين تكرروا خمسون .

أما عدد من تكرر، في السلطنة أربعة عشر .

1 - عدد من تكرر، من الفاسيين أحد عشر .

2 - عدد من تكرر، من المراكشيين خمسة عشر .

3 - عدد من تكرر، من أهل الأشراف أربعة .

وقد انقسم المغاربة عندما ملكوا تنبكت إلى عدة أقسام، وهي :

1 - أهل المراكشيين، سكنوا حومة ساري كيب، والجامع الكبير.

2 - الدراوي، من أهل درعه - سكنوا حومة ساري كيب.

3 - سراك، سكنوا قرية كبر.

4 - ألحاح، سكنوا حي سار يامو.

5 - الفاسيون، سكنوا قرب تنبكت.

6 - المرسيون، سكنوا قرب تغارسُ.

7 - الأندلسيون، سكنوا بعضًا من جهات تغاسُ.

8 - أهل الجبل، معرفون في تنبكت بارجبُركُي.

9 - الشاظميون، معروفون في تنبكت أيضاً بسارمي موضع.

10 - المنصور، سكنوا حومة الجامع الكبير، معرفون باركي منصور.

11 - شطوط، قبيلة من الرماة.

وخلاصة القول حول الحضور، من وجهة نظر سودانية، نورد الآتي :

1 - اعتبر أهل السودان الغربي ـ على لسان عدد من علمائهم ومؤرخيهم ـ أن الحملة كانت نتاج حالة من الفوضى، والانحطاط مرت بها منطقة السودان الغربي، نتيجة الصراع على كرسي الحكم، الأمر الذي ترتب عليه اختلال في الأمن وصراعات دموية، انعكست على الوضع الاجتماعي، وبذلك انتشرت الرذيلة بأنواعها. واعتبر بعضهم ذلك، نتيجة لفساد أمر سنغاي ، ووصفها آخر بالجهاد لإعلاء كلمة الله، لأنه شعر بتدني العمل بالدين، ونشر الرذيلة، وقال عنها عبد الرحمان السعدي بأنه عقاب من الله لأهل السودان الغربي، بما اقترفت أياديهم بجيش جودر، فاقتلعهم من جذورهم .

وكل هذه الآراء وغيرها، تنم عن رضاء تام عن الحملة، وأنها لم تكن كما يخيل للبعض، أنها نهب لخيرات السودان، ولو كانت كما يظن البعض. . فإن السودان معروفة للمغرب، قبل دولة سنغاي، ولكن الحملة جاءت لتصحيح مسار منطقة بحالها.

2 - وفي الوقت نفسه، استاء عدد من مؤرخي وعلماء السودان الغربي، من ممارسات بعض قادة الحملة، مثل محمود بن زرقون وجودر. ولكنهم اعتبروا تصرفاتهم شخصية لم تصدر لهم من مراكش ؛ والدليل على ذلك عدم رضاء القائد المغربي، أحمد الحداد عن تصرفات الباشا محمود بن زرقون، وأخبر السلطان المغربي المنصورالذهبي عما بدر منه، وعزله .

3 - كشف بعض علماء ومؤرخي السودان الغربي، على أن هناك أعداداً هائلة من أبناء السودان الغربي، كانوا مع الجيش المغربي في تطهيره للمنطقة .

4 - أفصحت الدراسة ـ من وجهة نظر سودانية ـ عن بقاء عدد كبير من المغاربة، في السودان الغربي، بعد رجوع الحملة عام 1112هـ/ 1700م امتزجوا مع السكان الأصليين، عرفوا بالرماة. وما تمر على منطقة من مناطق السودان الغربي، إلا وتجد فيها أسرة مغربية تعرف بالرماة، وخاصة في المدن الكبرى، وحالة هؤلاء ميسورة وجزءٌ من أبنائهم يشغلون مناصب في دول السودان الغربي،[1] وقد التقيت بأعداد منهم في تنبكت، وجاو، وليرى، وقندام، وجني، وجاو، وكنى وطاوه، وينامى، وأقدز، وغيرها من مناطق السودان الغربي؛ فلو أنهم لم يندمجوا مع السكان الأصليين، لما استمروا لهذه الفترة. بل إنهم ساعدوا على تحسين النسل في السودان الغربي ؛ وطوروا المنطقة سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً، وعلميا، فطوروا الزراعة والصناعة والتجارة وبنوا المساجد والمنارات العلمية، ومحوا بأخلاقهم النبيلة، رواسب الماضي من ممارسات لأخطاء عدد من قادة الحملة.

في الختام... أريد أن أنوه، إلى ما سبقت الإشارة إليه، في بداية الحديث عن الحضور، على أن الذي يهمني منه هو تواجد العنصر المغربي في المنطق والحضور من وجهة نظر سودانية هل هو استعمار أم جهاد وإنقاذ للمنطقة ؟ وقد

(1) تقلد الدكتور زين مولاي، وهو مغربي الأصل، منصبًا رفيعًا في عهد الرئيس السابق لجمهورية مالي، موسى تراوري، ألتقيت به في بيته بالعاصمة باماكو، وأفادني بهذه المعلومة، بتاريخ 1985/9/15.

أحجمت عن الكتابة في سير الحملة وتطوراتها ومعاركها وباشواتها، وأكتفيت بالحديث في هذا الموضوع، بمعلومات، قدمها بعض مؤرخي السودان الغربي عن الحملة، وأغلبها مقتضبة، إلا أن لها فائدة، إذ إنها تعبر عن رأي الطرف الثاني المفقود لفترة طويلة من الزمن . كما حاولت أن أوضح، وأصحح بعض المفاهيم، التي وقفت عليها في عين المكان.

الطوارق كقوة سياسية فى منطقة السودان الغربي :

تسميتهم ونسبهم :

اختلف المؤرخون، في تسمية الطوارق بهذا الاسم، فمنهم من يقول : إنهم سموا بالطوارق، نسبة إلى طارق بن زياد، ومنهم من يرى أن التسمية، جاءت نسبة لطرقهم الصحراء، وتوغلهم فيها[1].

وأمام هذه الآراء، فإني أرى أن التسمية، أطلقتها عليهم الشعوب المجاورة لهم نظراً لكثرة ارتيادهم للصحراء.

اختلف المؤرخون أيضاً في تنسيب الطوارق والرجوع بأصولهم، فمنهم من يرى أنهم ينتسبون إلى صنهاجة، والصنهاجيون يرفعون نسبهم إلى حِمْيَرْ، وقبائل صنهاجة كثيرة، ولكن أشهرها لمتونة، وجدالة، ومسوفة، وهم متوزعون في الصحراء، لا يستقر بهم مقام، وهم على دين الإسلام، والسنة، وليس بينهم وبين العرب المغاربة نسب، إلا الرحم، وأنهم خرجوا من اليمن، وارتحلوا إلى الصحراء، وسكنوا في المغرب مدة، وأن يوسف بن تاشفين، طردهم من المغرب إلى التكرور[2].

أما ابن موسى السعدي، فيورد أن صنهاجة الملثمين، كانوا في الأزمنة القديمة

---

(1) - محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، ط : مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء : كالياري، إيطاليا، ديتار 1989ص 27.

(2) - احمد بابير الأرواني، السعادة الأبدية ، مخطوط ، ورقة 10 وأحمد بابيرالأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 20 ـ21.

قبل الإسلام، يقطنون الصحاري الجنوبية للمغرب، ويعتمدون في غذائهم على لحم الإبل ولبنها، وأنهم يجتنبون المدن، وهذا ينطبق على الطوارق[1]. ويرى هنري لوت أن أصلهم من الجرمنت[2]. إلا أن جيبوى هامني، يستبعد ذلك، ويعلل بأنه ليس هناك أدنى علاقة بين الشعبين، وذلك لأن الطوارق في الأصل شعب أبيض، رغم إقرار بعض الكتاب القدامى بأنهم من الجرمنتيين، وأنهم وسطاء بين البيض والسود .

أما السبب الثاني. . فإنه يرجع إلى أن الشعوب، التي ساعدت على تشكيل الطوارق الحاليين، كانت خارج فزان، وهي هوارا، ولمطا، ومسوفة. ومن المؤكد أن بعضاً منهم، مر بفزان في فترة متأخرة، وأن الرباط الوحيد، الذي يربط بين الطوارق والجرمنت هو «تركا» الذي يعتبر اسماً ثانيا لفزان . ويضيف جيبوا هامني، أن الطوارق هجين، يتكون من العرب المغاربة والعرب غير المغاربة[3]. وأمام هذه الآراء التي تبحث في أصل الطوارق، فإني أميل إلى الرأي القائل : إنهم من صنهاجة، الذين نزحوا من اليمن، وذلك لسببين، هما:

1 - أن ملامح الطوارق ملامح عربية

2 - اللهجة التي يتخاطبون بها إلى يومنا هذا موجودة في اليمن.

موطنهم وتقسيماتهم :

تنتشر مضارب الطوارق في الصحراء الكبرى، ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية، مع موريتانيا، مروراً بشمال مالي وشمال النيجر، ونيجيريا

---

(1) موسى السعدي، زهور البستاتين، مخطوط، ورقة 158.

(2) هنري لوت ، الصحراء الكبرى ، كمجال حيوي للإنسان، تقريب عماد غانم، طرابلس : مركز الليبيين للدراسات التاريخية، ص : 244.

(1) DJIBO M HAMANI , au carrefour du Soudan et de la Berberie : Le Sultanat Touareg de l'ayar, Institue de Recherches en Science Humaines, Niamey. 1989. P : 46.

وبوركينا فاسو، وشمال تشاد، وجنوب غرب ليبيا، وجنوب شرق الجزائر[1].
وتنقسم منطقة الطوارق إلى سبع سلطنات، وكل سلطنة لعدد من القبائل، وهي:

1 - سلطنة آزقر

وتشغل سلطنة آزقر سهول ووديان وواحات جبال تاسيلي، وتمتد أراضيها من مدينة غدامس ومرزق إلى ولزي، في الجنوب الشرقي للجزائر، وتتمركز في مدينة غات، التي تقع إلى الجنوب الغربي من ليبيا.

وتتكون هذه السلطنة من عدد من القبائل، أهمها :

أ ـ قبيلة أفوغاس:

يقال إن اسم القبيلة، اشتق من حيوان منقرض، كان يطلق عليه باللغة التارقية (فعس)، وهو من الحيوانات المفترسة، ويقال: إن الجد الأول لقبيلة أفوغاس، يدعي فعس ــ أما عرش القبيلة فمن طوارق أزجر .

ب ــ إوراغن:

وتنقسم بدورها إلى أهل غات، وكشكزان، وأهل اواي[2].

حـ ـ منغساتن :

من القبائل التي لها مكانة بين أقرانها من القبائل، وعرشها دائماً من طوارق أزجر.

د ـ إلمطين:

هـ - امنـان:

و ـ كيل ولى:

---

(1) لقد زار الباحث اغلب مضارب خيام الطوارق، وبذلك أعطيت تحديداً لتواجدهم، بالإضافة الى ماذكره إسماعيل العربي الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر : المؤسسة الوطنية لكتاب 1983.

(2) Djibo M. Hamani OP-cit. P : 12.

ز - مقر غسن[1] :

2 - سلطنة الهقار :

تحد سلطنة آزقر، من جهة الشرق، وتتخذ من مدينة تمنغست في جنوب شرق الجزائر مركزاً لها، وتمتد مضاربها إلى الحدود المالية النيجرية .

وتتألف السلطنة من عدد من القبائل، أهمها :

أ ـ كيل أغلا .

ب ـ تيطوف، ويطلق عليها كذلك طيطوف.

ح ـ كل أغري، ويطلق عليها كلرولة.

د ـ تيغية ملت أو تاغت ملت[2].

والجدير بالملاحظة، أن على راس كل واحدة منها، عشيرة نبيلة تحمل اسمها، ورئيس العشيرة النبيلة هو رئيس القبيلة، ويختار إلى جانبه مجلس يتكون من رؤساء أسر العشيرة، ولكن لكي يُعْتمد هذا الاختيار، لا بد أن يقره مجلس القبيلة، الذي يتكون من رؤساء العشائر. أما الرئاسة فهي وراثية ومن ناحية الأم، لا من ناحية الأب[3].

3 - سلطنة والليمدن كل اطرام :

تعني كلمة والليمدان، عند الطوارق، أهل الغرب. وتمتد هذه السلطنة من منطقة أزواغ، إلى منحنى نهر النيجر، وتحدها من الغرب ولاته، ومن الشرق

---

(1) محمد عبد الرحمان عبد اللطيف الفلاني، الطوارق شعب الصحراء ، مخطوط، مكتبة محمد سعيد القشاط بطرابلس، دون تصنيف، ورقة 37 ـ 38، بشير قاسم يوشع، غدامس ملامح وصور، بيروت : دار لبنان للطباعة والنشر 1973 ، ص ص281 ـ 282 ، وعبد القادر.

(2) محمد عبد الرحمان عبد اللطيف، أمراء دولة الملثمين، مخطوط، مكتبة محمد سعيد القشاط بطرابلس، دون تصنيف، ورقة 20 أحمد بابير الأرواني الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 21، ومحمد سعيد القشاط، الطوارق غرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق ص 40.

(3) أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان، مخطوط ورقة 21، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص ص 176 ـ 177.

سلطنة تكر يقريت، ومن الشمال تيزي، ومن الجنوب مالنكلي، التي تقطنها قبائل البمبار، والليمودون ترجع أصولها إلى قبيلة مسوفة[1].

وتختلف هذه السلطنة عن بقية السلطنات، لأنها تنقسم إلى إمارات، بالإضافة إلى القبائل، وهذه الإمارات هي :

1 - إمارة كلنصر، تتركز ببلدة قندام، التي تقع إلى الغرب من مدينة تنبكت، والتي تبعد عنها بحوالي خمسين كيلومتراً، وتمتد مضارب الإمارة إلى الشمال من تنبكت، بمنطقة أزاود، وتضم كلنصر أغزاف، وتنكر يقيف وكل بتوارق، وكلتقلالت وكل أسكن وكل قوسى والهشان أبو غليتين وإقلاد.

ب ــ إمارة تنكر يقيق، فهي على منحنى نهر النيجر.

حـ ــ إمارة كونتة، وهي إمارة تقع على أطراف مدينة جاو.

د ــ إمارة إفوغاس، حول جبال إفوغاس[2].

كما تضم سلطنة اوللیمدان عدداً من القبائل، وهي :

أ ــ كل أهارا، وهي القبيلة التي تكون فيها السلطنة.

ب ــ كل تهينات.

حـ ــ أغطفانن، ويقال إنها تحريف لاسم قبيلة غطفان العربية.

د ــ إلوغمان.

هـ - أودالن.

و ــ إمنان.

ز ــ إمغران.

---

(1) - DJIBO, M. HAMANI, OP-cit. P : 4.

(2) محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص41، والهادي المبروك الدالي ، من روائع أدب أفريقيا فيما وراء الصحراء، اللجنة العلمية لدراسة جنوب الوطن العربي ،بيروت : دار صنين للطباعة والنشر 1996، ص ص 39-40.

ح ــ إشهد نهارن.

ط ــ إمضضغن.

ي ــ كل وليّ.

ك ــ إداو إسحاق، وهي تضم عدة تفرعات.

4 - سلطنة تقريقريت : والليمدن أهل الشرق:

تعني كلمة تقريقريت الوسط، في لغة الطوارق ، واشتق اسمها من موقعها بين السلطنات، تحدها من جهة الشمال، سلطنة الهقار، ومن الجنوب سلطنة كل اقرس، ومن الغرب سلطنة والليمدن كل اضرام، ومن الشرق تحدها سلطنة تمزقدا آيير، ومركز هذه السلطنة مدينة (طاو)[1][2].

تضم هذه السلطنة عدداً من القبائل، أهمها :

1 - كل نان : وهي القبيلة التي تكون منها السلطنة.

2 - كلا أغلال : وهي القبيلة الروحية والإمامة عادة تكون في رجالها.

3 - تقرمت.

4 - إراولن.

5 - إيخيرخيرن.

6 - إزرياضن.

7 - تلميد يس.

8 - أقيران.

9 - كيل إزار.

---

(1) مدينة تقع في جمهورية النيجر إلى الشمال الشرقي من العاصمة نيامي، تبعد عنها بأربعمائة وخمسين كيلو متراً، وهي موطن توارك والليمدن، زارها الباحث عام 1994م .

(2) أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان مخطوط ورقة 21 ــ22، محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص42.

10 - أيت أداري ·

11 - الشريفن : وهم ينتسبون إلى البيت الهاشمي ·

12 - داغمنا ·

13 - أقدالن وهم من جداله ·

14 - أزويتن، وهم يرجعون إلى قبائل الزوايا بموريتانيا ·

15 - إجو انجواتن ·

16 - إيدابيرن ·

17 - إبهيوان ·

18 - إيكد قان ·

19 - إينكلان

20 - إلبكان ·

21 - إبضيضاين

22 - إنمعراون، وهم بقايا قبيلة مغراوة، الشهيرة بالشمال الأفريقي ·

23 - إيكلان ·

24 - إراكيتان ·

25 - اشيد يوان[1] .

5 - سلطنة ايير :

أطلق عليها هذا الاسم، نسبة إلى جبال (آهيير)، التي يسكنها رعايا السلطنة. تحدها من الشمال سلطنتا آزفر والهقار، وتشترك جنوباً مع سلطنة تمزقدا، في منطقة أزواغ الشرقي، عند هضبة تقتديت، وغرباً تتداخل مع سلطنة والليمدن

(1) - مجهول تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 13، محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص ص42 ـ 43.

كل دنت، وتقريقريت في منطقة أنقال نقدا، ومن الشرق تحدها رمال تينيرى، ومن الغرب واحات كوار بلما.

وتنقسم السلطنة الى ثلاثة أقسام :

1 - **آير الشمالية** : وهي تضم المناطق الواقعة إلى الشمال من مدينة أقدز، وهي أكثر تماسكاً اجتماعياً، عن بقية السلطنة.

2 - **آير الوسطى** : وهي تمتد من جبال تغازي في الشمال إلى أودراس في الجنوب، وهي عبارة عن جبال؛ وأهم جبالها تغازي، وأغرغاتن، وتمغة والبنداي، وسرسُو، وأعلان، وأغتن، ودحلان، وجبل بلا واودراس، وكل هذه الجبال ذات انحدار شديد.

3 - **آير الجنوبية** : وهي عبارة عن منحدرات صخرية، ولها قمة واحدة يبلغ ارتفاعها 3300 قدم[1].

وخلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، استوطن البربر آير، وشيدوا بها مدينة تين شمن، على الطريق التي تربط أودراس بأقدز، واتخذوا منها عاصمة لإمارة عرفت ازدهاراً اقتصاديا وثقافياً.

وقد أفاد صاحب مخطوطة تراجم علماء باغرم أن قبيلة من العرب المغاربة تدعي (كيل أوي) جاءت من الشمال الغربي، من مملكة الكوسى، بين (زندر)[2] وكوكا، واستوطنت المنطقة عام 1153هـ/ 1740 م، ويبدو أنها من الطوارق، المطرودين من تلك الأماكن[3].

ينقسم سكان آير إلى مجموعتين رئيسيتين، هما :

---

(1) مجهول، تراجم علماء، باغرم، مخطوط، ورقة 13، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص191.

(2) زندر : مدينة من ضمن جمهورية النيجر الحالية، تقع إلى الجنوب الشرقي من العاصمة نيامي، وتبعد عنها بحوالي 600 كلم.

(3) مجهول، تراجم علماء باغرم، مخطوط، ورقة 14، وإسماعيل العربي، المرجع السابق، ص192.

السود والطوارق :

ويعتبرون أكثر تقدماً من إخوانهم، في الشمال. وطوارق آير أقل تماسكاً من حيث التنظيم الاجتماعي، من طوارق الشمال، بينما ظل شيخ الطوارق في الهقار (امنوكل) يحتفظ بسلطته القوية، عبر العصور، فإن (بامنوكل)[1] طوارق آير لا يملك إلا سلطة اسمية[2].

تقطن أهم قبيلة من آير مدينة أقدز، التي تأسست في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، على أيدي القبائل الليبية الخمس، والتي اقتسمت فيما بينها إقليم آير . ونظراً لموقعها المتميز، أصبحت أقدز قصبة المنطقة لمملكة مزدهرة اقتصادياً وثقافياً. وقد بلغت قمة مجدها عام 926هـ/ 1519م، بعد أن استولى عليها السلطان أسكيا الحاج محمد[3].

وتضم سلطنة آير عدداً من القبائل، وهي :

1 - كيل اواي.

2 - ايكزكزن.

3 - كل تدلي.

4 - إفوغاس.

5 - إهقاران.

6 - كل إغاروس.

7 - كل اقدادي.

8 - أخير خيرن.

---

(1) بامنوكل تعني سلطانًا عند الطورق.

(2) نفسه والورقة.

(3) مجهول، تاريخ أقدز مخطوط، ورقة 10، وإسماعيل العربي ، المرجع السابق، ص193، للمزيد عن مدينة أقدز، ارجع للأطروحة نفسها ص 453.

9 - إمزوراك .

10 - كل فروان .

11 - إفرتين .

12 - إقدالن .

والجدير بالملاحظة، أن هذه السلطنة، من تقاليدها، تولي شيخ القبيلة كيل أواي منصب مستشار السلطان لشؤون الطوارق، وهو بمثابة نائب للسلطان، ويعرف عند الطوارق (بأنستا فيدت)[1].

6 - سلطنة تمزقدا :

تتميز بموقعها الإستراتيجي، إذ إنها تحتل أراضي خصبة، ينزل بها المطر . إضافة إلى ذلك، تتحكم في طرق القوافل القادمة من ليبيا إلى بلاد الهوسا، وكذلك مصر، كما ترتبط بعلاقات تجارية مع مناطق بحيرة تشاد، ومملكة كانم، وقبائل التبو، والزغاوة[2].

وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلته، عندما أورد قائلاً: " . . . وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم، والخطيب محمد والمدرس أبو حفصى والشيخ سعيد ابن علي إلى سلطان تكدا، وهو عربى مغربى يسمى إزار، وكان على مسيرة يوم منها، ووقعت بينه وبين (التكركري) وهو من سلاطين العرب المغاربة أيضاً منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما "[3].

حدود السلطنة :

تحدها من الشمال سلطنة آيير، ومن الجنوب مملكة كتشنا الهوساوية، ومن الغرب سلطنة تكريقريت، وسلطنة كل أفرس، ومن الشرق مملكة برنو .

(1) مجهول، تراجم علماء بغرام، مخطوط ورقة 16، محمدسعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص43.

(2) - نفسه والورقة.

(3) - ابن بطوطة المصدر السابق، ص595.

وتتكون السلطنة من عدة قبائل، أهمها :

1 - الشريفن، وينتسبون لأشراف بني هاشم.

2 - كل فروان.

3 - إيكزكزن.

4 - إيفدين.

5 - إيكشكشن.

6 - إفوغاس.

7 - إمزوراك.

8 - كل انبرده.

9 - إبرضيانن.

10 - إزمايان.

11 - إيرغران.

12 - إقدالن.

13 - كل طمات.

14 - إيمزوغن.

7 - سلطنة كل اقرس :

هي آخر سلطنات الطوارق، إلى جهة بلاد الهوسا، وتحتل المنطقة المعروفة (بآخر واضر) وتعني الوادي الصغير، في لغة الطوارق، وتحدها من الشمال الغربي سلطنة تكر يقريت، ومن الجنوب قوبير، ومن الغرب سلطنة تمزقدا.

ومقر هذه السلطنة أزرا روري، إلى الشمال من مدينة ماداوا .

تتكون هذه السلطنة من عدد قبائل، وهي:

1 - كل اقلان، وهم مجموعة الأغلان بموريتانيا.

2 - إغاون.

3 - كل منبر.

4 - إتيسان[1].

سلطنة مقشرن :

تتمركز هذه السلطنة، في المنطقة الواقعة بين ملاحات تغازا إلى مدينة تنبكت، وهي سلطنة وافرة العدد، ويرجع أصل سكانها إلى لمتونة من حمير. يشتهر أبناء هذه السلطنة بنشاطهم التجاري المتميز، الذي مكنهم من بناء مدن كبرى في السودان الغربي، مثل مدينة تنبكت، وقد عرف سكان وسلاطين مقشرن بالفضل والعلم والعطف، حيث احتمت بهم قبيلة أولاد عبد الرحمن في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، فنزلت عندهم ومكثت بينهم ثمانين سنة، وجدوا من خلالها حسن المعاملة. ظل الطوارق في تلك المناطق، إلى أواخر القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، حيث أبعدهم عنها جيش جودر. وأورد السعدي أن دولة مقشرن، استمرت ثلاثين سنة من تاريخ سبعة وثلاثين من القرن التاسع[2].

سلاطينهم :

أول سلاطين طوارق مقشرن :

1 - فأوسنب بن محمد بن أليم بن الكنقي، المولود بمدينة تنبكت.

2 - الحاج محمود دبير، وهو من مواليد مدينة تنبكت.

(1) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 2-3 ، ومحمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى، المرجع السابق، ص46.

(2) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 1- 2، أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط، ورقة 22-23 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص22.

3 - محمد وأوسنب، وهو مزداد بمدينة تنبكت

4 - أبوبكر وأوسنب، وهو من أولاد أليم بن الكنقي، ولد في مدينة تنبكت، وارتحل إلى ديار أولاد سيدي محمود، منذ صغره لطلب العلم، وبعد أن تبحر فيه، اشتغل بالتدريس إلى جانب أمور السلطنة. كانت خاتمة حياته مؤلمة؛ إذ دخل دياره القائد مصطفى التركي، وأباد جميع أهله ومؤيديه[1].

5 - في عام 1134 هـ/ 1712م كان سلطان الطوارق الشيخ بن كردان، ثم جاء بعده السلطان كي محمد نض[2]. ومن الذين تولوا السلطنة (أكل) وابنه عمار، الذي انتهج سياسة، طبعها الظلم والفساد[3].

أما مدينة تاد مكتة، فقد تعاقب عليها عدد من السلاطين، كان أولهم النابغة (بن كاوي) و(سرم) و(اكودرن) و(سالم بن واكس بن منصور)[4].

مكانة الطوارق وثقلهم السياسي :

عرفت قبائل الطوارق، لدى ممالك وقبائل السودان الغربي بالقوة، والشجاعة الفائقة، وبعزة النفس؛ فتسابق عدد من ملوك السودان الغربي إلى كسب ودهم، والتودد لهم، وكانوا يمثلون العمق الاقتصادي في تجارة القوافل عبر الصحراء، وكانت أغلب القوافل التجارية المتجهة من غدامس إلى تنبكت وباقي مناطق السودان الغربي يقودها الطوارق[5]، ولكن على الرغم من ذلك فقد نعت عدد

(1) - عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ص 313.

(2) - المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، بن المختار، نبذة منقولة عن الشيخ الكبير المختار الكنتي حول الطلسم، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 90، ورقة 46 .

(3) مختار بن محمد بن المختار بن احمد، يبعث برسالة إلى امير المؤمنين الشيخ أحمد بن أبي بكر بن سعيد، مخطوط، مكتبة محمود أحمد الأرواني، دون تصنيف، ورقة3 ، وعبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص ص 22 - 24.

(4) المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، يبعث برسالة الى أمير المؤمنين الشيخ محمد بن أبي بكربن سعيد، مخطوط، مكتبة جبريل دكوري بتنبكت، دون تصنيف، ورقة 3 .

(5) جيمس ريتشاردسن، ترحل في الصحراء من 1845-1846، ترجمة الهادي مصطفى أبو لقمه، منشورات جامعة قاريونس 1993، ص 140.

من مؤرخي السودان الغربي الطوارق، بنعوت لاتمت أغلبها إلى الحقيقة بصلة ؛ ومنهم صاحب مخطوط نصيحة الأمة الذي قال: «وأما الطوارق فإنهم تغلبوا من غير معرفة بسياسة الملك، والقيام بالمناصب الشرعية، فإنهم يخربون ولايعمرون ! وهذا هو حالهم... وهم مع ذلك أولى في كثرة إراقة الدماء واستحلالها في القرن الثالث بعد الألف»[1] 1003 هـ/ 1594م.

وقد وصفهم المختار بن محمد بن المختار، في رسالة بعث بها إلى أحمد ابن أبي بكر، قال له فيها عن الطوارق: «... ذلك أن الطوارق فوق مايوصفون به من كثرة الرجال وبسطة الأجسام والأموال، وغالباً ديارهم صحارى وفلوات... »[2].

إن ما أورده جلال الدين الفقيه عنهم، لايمت إلى الحقيقة بصلة؛ نظراً لأنهم أثبتوا نجاحهم في تسيير أمورهم وعلاقاتهم مع جيرانهم. أما ما خاضوه من حروب، فقد كانوا مكرهين عليه.

لقد شهد الطوارق صراعات دموية، مع بعض حكام السودان الغربي، الذين أرادوا تأديبهم كما يزعمون. وقد حدثت مواجهات دامية، بينهم وبين الملك سني علي، أول ملوك إمبراطورية سنغاي، الذي اتهم بعض العلماء وبعض العامة، ظنًّا منه بتواطئهم مع الطوارق، الذين أذاقوه الويل[3]، لأنهم من الشعوب المحاربة، والمتمرسة في حرب العصابات، التي ماتزال إلى يومنا هذا من أنجح الحروب وأكثرها فاعلية.

وفي عهد مملكة مالي الإسلامية، حاولوا الانفصال عن المملكة[4]؛ نظرًا

(1) ـ جلال الدين محمد الهما التنبكتي، نصيحة الأمة في إثبات حكم الرخصة، مخطوط، ورقة 10.

(2) ـ المختار بن محمد بن المختار يبعث برسالة إلى أحمد بن محمد بن أبي بكر بن سعيد ، مخطوطة ورقة 14.

(3) ـ عبد الرحمن السعدي ،المصدر السابق، ص 65.

(4) ـ نفسه، ص 27.

لشعورهم بالقوة، والقدرة على تكوين دولة في مضارب ديارهم، كما حدثت، في عهد إمبراطورية سنغاي بينهم وبين بعض ملوكها مناوشات، وخاصة في عهد السلطان أسكيا إسحاق، الذي عرف قوتهم وشدتهم، فكسبهم إلى صالحه، بعد أن كانوا ضده، وسخرهم لتأديب وإظهار قوة سنغاي لدى حكام مراكش، الذين بدأوا يتطلعون إلى دخول المنطقة، حيث أرسل فرقة من فرسانهم، إلى مشارف مراكش، وطلب منهم الإغارة عليها، دون أن يقتلوا أحدًا[1].

وعندما جاء جيش منصور الذهبي إلى السودان الغربي، قاومه الطوارق مقاومة عنيفة وظلوا يتحينون الفرص، وحينما خرج جيش المغرب استولوا على تنبكت، وكونوا دولة الطوارق[2].

وقبائل الطوارق، كانت لديهم صراعات مع قبائل الفلان، المنافسة لهم في المنطقة. ويكشف هذا الصراع، الرسالة التي بعث بها أمير المؤمنين أحمد بن محمد إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد سنة 929 هـ / 1522 م .

وهذا نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي يأجر الشافعين والمشفعين ويجزي الشاكرين ويحب الصابرين والمحسنين، والصلاة والسلام على أفضل الشافعين والمشفعين.

أما بعد فالسلام بالتمام والإكرام بالاهتمام من الشيخ أمير المؤمنين أحمد ابن محمد إلى الأخ في الله والعون المتعاون على طاعة الله سيدي المختار، جعلنا الله من المصطفين الأخيار آمين. قد رأيت ماكتبت إليّ من أنك تخوفت من أن نذكر ليس في أمرئ برد قائم العير من أموالنا التي نهبوها قبل قدومك وبعده، إلا أن نتبين في ذلك التخوف وعلته إلى ماقلت في كتابك فإنه تعني سر ولم يزل متعلقًا بي ولم أزل شافعًا له عندك ماشفع شفاعة الشافعين عند السادة النافعين

(1) ـ عبد الرحمن السعدى، المصدر السابق، ص 65 - 99 - 127.

(2) ـ أحمد بابير الأرواني، الجواهر الحسان، مخطوط ،ورقة 21 .

. . . عقدنا رأينا عقداً مستحكماً على أن لايثنينا مع هؤلاء الطوارق الغلاة البغات الطغاة العبدة المردة الغدرة الفجرة . . . لأنهم لم يزالوا منذ زمن والدك المرحوم يغشوننا غشا ويغدروننا غدراً مرة بعد أخرى، ويبغتون قرية (كبرى) بعد أخرى، ولاحساب للقرى الصغرى والخيانات الأخرى، ولذلك أزمعنا على أن نجادلهم وندامغهم حتى يبعدوا عنا. . .أو يرجعوا إلينا أذلة صاغرين بحيث ننفذ حكم الشرع الشريف . . . كما نفذت في أشياعهم من أجناسهم كتوارق تشيت، وقد جئت بتوفيق الله جاداً مجداً في الإصلاح وطلب الفلاح والصلاح . . . فقد فوضنا أمر هؤلاء الطوارق إلى الله ثم إليك، فأفعل في أمرهم كيفما رأيت ورجوت الفلاح والصلاح للإسلام وأهلها. . . وإن رأيت إسقاط غنائم العين الذي نهبوه من قبل قدومك وبقية مال الصلح والمنهوب قبل وبعد، مع بقاء عالم فالإمارة فافعل أيضًا ولكن بشرط إن رأيت إبراء ذمتي من حقوق أرباب هذه الأموال كلها شرعاً، وشاورت إخوتك الأمير عثمان وأحمد بن عمر في ذلك لاأريد إلا الإصلاح ماستطعت كما تيقنت ذلك والسلام انتهى»[1].

من خلال فقرات النص السابق، يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها الرسالة.

2 - مكانة قبيلة كنته الروحية، بين قبائل السودان الغربي، لأن المرسل اليه كنتاوي.

3 - حالة الخوف التي تسيطر على سلطان الفلان والأهالي من ممارسات الطوارق، وسطوهم على تجار الفلان، وأخذ عيرهم.

4 - يبدو أنه كانت هناك مراسلات بين سيدي المختار وأمير المومنيين أحمد ابن محمد.

---

(1) - أحمد بن محمد يبعث برسالة إلى الشيخ سيدي المختار بن سيدي محمد، موضوعها في شان خلاف بين الفلان والتوارك، مخطوط، مكتبة محمد علي الفلاني. بأروان، دون تصنيف، تاريخها هـ/ 1529م، ورقة واحدة.

5 - يبدو أن الخلافات كانت قديمة بين الفلان والطوارق، وعبارة: لم يزالوا منذ زمن والدك يغشوننا لدليل على ذلك.

6 - من الواضح أن الطوارق أقوى من الفلان، فلهجة الرسالة تدل على ذلك.

7 - لجوء الفلان، وطلبهم الصلح والتدخل، يدل على حرصهم على عدم إراقة الدماء.

8 - الصراعات القبلية وحالة الفوضى في تلك الفترة وعدم قدرة مملكة سنغاي على ردع المتمردين من القبائل.

كما كان لقبائل الطوارق صراع دامٍ مع إدريس ألوما من 1564 إلى عام 1576م، فقد غزاهم ثلاث غزوات تسمى الغزوة الأولى سكتله أوبرس، والغزوة الثانية هي بدنكم أو ترغيغة، والثالثة تسمى تادس.

ففي الغزوة الأولى حدث بينهم صراع، كاد أن يفنى الطرفين، بدأ من بعد صلاة المغرب، حيث قتل إدريس تسع من قادتهم وانتصر عليهم، وغنم نساءهم وأولادهم وأموالهم، ورجع إلى برنو.

أما الغزوة الثانية، فقد توجهت صوب أهل دلكر، حيث دخل معهم في معركة من الضحى إلى الليل، صمد فيها الطوراق صمود الصخور، وسقوا إدريس كاساً مرًا، ألحقت به هزيمة نكراء[1]. وفي المقابل، كانت قبائل الطوارق على علاقات وطيدة مع قبيلة كنته العربية، وهذه المخطوطة التي نوردها الآن برهان على ذلك، قال صاحب المخطوط : «سمعت الوالد رضوان الله عليه يقول قدم؛ أي الشيخ بن كردن سلطان الطوارق في مائتي راكب على ولي الله سيدي الحاج أبي بكر بن محمد بن عمر الوافي، ثم الكنتي سنة أربعة وثلاثين بعد المائة وآلاف 1134 / 1721 م فقام عندهم ثلاثة أيام، فعرض الجماعة له مداره مائة ناقة وحصانا [ولباساً وحراقا] وسروال حبش في صندوق عنده،

(1) - أحمد بن فوطو، كتاب غزوات السلطان إدريس ألوما في برنو 1564-1576، حققه وعلق عليه وترجمة إلى الإنجليزية ديرك لانجي، فرانز شتيز، 1984، ص32-33.

فكان يبعث خديمه ويقول له : أدخل يدك في الصندوق وأخرج دراعة وحراماً وسروالاً، ولاتفتح الصندوق فيذهب الخادم فيأتي بما ذكر، فيناوله رجلاً من القوم ثم يرد الخديم فيأتي فمثل ذلك حتى ألبس المائتي رجل، فلما أخرج الخديم آخر ذلك نظر في الصندوق فإذا فيه دراعة وحرام وسروال فأخبر السيد الحاج أبا بكر بذلك، فقال له : أفتحت الصندوق؟ قال نعم! قال : لو لم تفتحه مازلنا ننفق منه»[1].

علي الرغم من أن هذه المخطوطة متاخرة عن الفترة بإحدى وعشرين سنة، إلا أنها تكشف النقاب عن جملة من الأمورالقديمة التي لاتتغير بسرعة، وهي :

1 - اسم سلطان الطوارق .

2 - العلاقات الحميمة بين الطوارق وكنته.

3 - كرم الضيافة، التي كانت عليها قبيلة كنته.

4 - القوة والهيبة، التي كان عليها سلطان الطوارق عدداً وعدة.

5 - ثراء رئيس قبيلة كنته، بتمويله لسلطان الطوارق، وأتباعه لمدة ثلاثة أيام وكسوتهم جميعا.

6 - أنواع الملابس التي يرتديها مشايخ وأهالي كنته.

7 - مدى هيمنة الجانب الروحي، على عقول أبناء السودان الغربي، وإظفاء الهالة الروحية على مشايخهم، فكيف لصندوق واحد أن يتسع لكل هذه الملابس !؟.

التنظيم السياسى لقبائل الطوارق :

يتألف نظام الحكم في السلطنات التارقية، من سلم إداري يتمثل في :

1 - **السلطان** : ويطلق عليه طوارق الهقار، واطرام ،وتكريقريت، وأمنوكال، أو أمغار، ناكال، وتعني عندهم إمام البلد. أو شيخ البلد

(1)- المختار بن محمد بن المختار بن أحمد، نبذة منقولة عن الشيخ المختار الكنتي حول الطلسم، مخطوط، ورقة 42.

وفي آيير، وتمزقدا، وكل أقرس، يسمى الطبل؛ لأنه المسؤول عن الطبل، وهو شعار الحكم والسلطنة، ويستعمل في الحرب وإدارة الاجتماعات.

ينصب الأمنوكال من طرف لاماني، وهو مجلس الأتابالان، ويتألف من رؤساء القبائل، وله الحق في عزل السلطان، ويرأس هذا المجلس السلطان الذي له الحق وحده في إعلان الحرب أو السلم. أما مجلس الأتابالات فهو المسؤول أولا وأخيراً، عن استتباب الأمن، والمسائل الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية[1].

وعادة مايكون السلطان محاطاً بمجموعة من القانونيين، والحكماء، والعلماء الذين يشغلون وظائف المستشارين، والقضاة والأئمة .

أما الأمور السياسية، والعسكرية، فينفرد بها السلطان عن غيره، يساعده في هذه المسؤولية أمغار أفغامان، بمعنى القائد العسكري، وهو يقوم بتدريب الشباب على فنون الحرب والأسلحة المختلفة، كالسيف، والرمح، والخنجر، ونحوه[2].

وكذلك يتميز السلطان بالتحكم في الطبل، الذي يعتبر الأداة الإعلامية، التي يتم بها إعلام القبائل بأمور السلطنة في السلم، والحرب.

وبما أن الطبل يمثل جانباً مهماً في حياتهم فإنهم وضعوا له مصطلحات ورموز تعارفوا عليها عن طريق عدد ضرباته، والأوقات التي يضرب فيها. فيضرب عندما يريد السلطان جمع الأهالي ثلاث ضربات على الطبل في النهار، ومثلها في الليل، وكذلك عند إعلان الحرب، وتكون اثنتا عشرة ضربة، وتعاد دون انقطاع ليلا ونهاراً؛ أما إلاعلان عن قدوم خطر خارجي؛ فيضرب على الطبل دون

---

(1) - عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط، ورقة 44، ومحمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى ، المرجع السابق ص ص50- 51 .

(2) - نفسه والورقة .

انقطاع طيلة النهار والليل. كذلك إذا ماأرادوا غزو الأعداء، فإنهم يضربون الطبل ست ضربات، وتعاد أربع مرات في النهار وأربع مرات في الليل، ويضرب على الطبل ثماني ضربات إذا اختفت إحدى القبائل ، أما عند ارتفاع الخطر عن مضارب الطوارق، فيتم الإعلان عن ذلك بضرب الطبل ثمان ضربات فقط لا تعاد. أما الذي يقوم بضرب الطبل، فعادة مايكون عبداً من عبيد السلطان[1].

وهذا الطبل عبارة عن قصعة خشبية، يربط عليها جلد بقر، أو بعير بعد دبغه بعود الجداري، ويشد بحبال رقيقة وقوية على القصعة، ويثقب الجلد أربعة ثقوب صغيرة على هيئة دائرة، لكي تسمح بمرور الهواء عند الضرب.

يقرع الطبل بعصا خاصة، أو بعقال بعير، ويفضل العقال لأنه لايؤثر على الطبل، وبذلك لايستهلك بسرعة[2].

طريقة تنصيب الأمنوكال وبعض وظائف الدولة :

اليوم الذي ينصب فيه الأمنوكال، يعتبر مناسبة مهمة في نظر الطوارق، تعد لها الاستعدادات، والمسؤول عن الترتيب لهذا الاحتفال الفقهاء والعلماء، فعندما يعرض أكثر من مرشح نفسه لهذا المنصب، يأمر المسؤولون عن هذا التنصيب المرشحين، بأن يجلس كل واحد منهم في خيمة أو تحت شجرة، ويطلبون من كل شخص يريد مرشحًا معيناً، الذهاب إليه والجلوس إلى جواره، ويعتبر الفائز هو الذي يجلس إلى جواره أكبر عدد من شيوخ القبائل.

ومن الوظائف في السلطنة، وظيفة شيخ القبيلة (أمغار)، وهو المسؤول في حالة الحرب والسلم عن القبيلة، وجمع الأموال لخزينة السلطنة ونحوه. وكذلك من المناصب منصب الإمام الذي يمثل الجانب الروحي، ومن يتولاه لابد أن يكون متظلعًا في الأمور الدينية، ويشرف على التعليم والمساجد[3].

---

(1) - محمد سعيد القشاط، التوارك عرب الصحراء الكبرى ، المرجع السابق، ص 51 .

(2) ـ محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط، ورقة 46.

(3) ـ نفسه والورقة.

منصب مجلس المشايخ :

يتكون من جميع شيوخ القبائل، ويجتمع بدعوة من الأمنوكال، ومن مهامه: مناقشة الأمور المتعلقة بالسلم والحرب، وتسيير القوافل التجارية، وتأمين الحماية لها، وتوجيه حركة انتجاع الرعي في طلبهم للماء و الكلأ، وتجنيبهم هجمات الأعداء[1]. هذا عن قبائل الطوارق وماتمثله من ثقل في المنطقة يحسب حسابه ·

موطنهم واصلهم :

تقطن قبائل الفلان في شمال موريتانيا ومالي، وشمال شرق النيجر، ونيجريا، والسنغال، وبوركينافاسو وتشاد[2].

جاء المؤرخون بعدة آراء، حول أصل قبائل الفلان، فكل واحد منهم انتحى رأياً بذاته ·

وقد أورد صاحب مخطوط، فتح الحنان المنان، بأن الفلان يرجع أصلهم إلى الفاتح العربي عقبة بن نافع، الذي بنى في القيروان لعسكره أربعة آلاف وستمائة داراً، وكان معه عشرة آلاف من المسلمين، وقد جاوز بجزء منهم إلى السودان؛ حتى وصل نهر النيجر، واستقر بمدينة كل السوق، وترك مجموعة من جيشه، قدر عددهم بألفي عسكري، ليوطدوا الإسلام ثم كر راجعاً، وقد قتله كسيلة في الطريق، والذين تركهم تزاوجوا مع السكان الأصليين، وحرفت كلمة ألفين، إلى أن وصل الاسم مايعرف بالفلان[3].

وقد أورد في نص آخر قائلاً «إن الإسلام دخل إلى السودان، في القرن الأول الهجري، على يد عقبة بن نافع الفهري الصحابي الجليل، ولقي بعض

---

(1) محمد عبد الرحمن عبد اللطيف، مخطوط ورقة 46 ·

(2) وقف الباحث على أغلب منتجعاتهم في عام 85 ـ 87 ـ 94 ـ 95 .

(3) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 4 - 15، محمدمحمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 24 ، وفيج جي دي، تاريخ غرب أفريقيا، المرجع السابق، ص 30 ·

قبائل الروم، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا على غير قتال، وأسلم ملكهم المسمى (برمندانه)، وتزوج بنت الملك وتدعى (بجْرمغ)، فأنجبت أربعة أولاد، هم الذين يرجع إليهم أصل القبائل الفلانية، ومقرهم بلاد فوتا؛ وبمرور الأجيال نشأت منهم هذه اللغة الفلانية»[1].

وأورد موسى بن السعدي عن أصل الفلان بأن :«الفلان قبيلة من قبائل الروم، أسلم ملكهم من غير قتال، وتزوج عقبة بن عامر ابنة ملكهم (بح مع)، فولدت كل قبيلة الفلانيين، وقد تكلم أبناء عقبة بن عامر بلغة أمهم، ويورد صاحب المخطوط أن هذه المعلومات استقاها من ثقاة من أهل بلاد فوت تور.

وأورد صاحب المخطوط، في موضع آخر، أنه نقل عن سيف دمك عبد السلام أن الفلان الذي في فوت، أصلهم من قبيلة من قبائل أقباط مصر، يسمون بالفلاح، أهل ماشية، وأهل بادية، وأن أصل لفظ الفلان الفلاح، وأصلهم من فلاحي مصر، فلما طال تداول الألسن للكلمة تبدلت. وإلى يومنا هذا بقاياهم هناك يتكلمون بلغتهم، وإن طباع الفلان موافقة لطباع أهل مصر[2].

وأورد كذلك موسى بن أحمد السعدي قصيدة طويلة عن أصل الفلان، نورد منها البيتين الآتيين :

فتورب إخوان الفلانين إخوة لعرب فمن روم بن عيض تفرعوا

فعقبة جد للفلانيين من عرب ومن تور كانت أمهم وهي يجمع[3]

كما أورد محمد بن الشيخ عثمان بن فودي في نسب الفلان قوله : «الحمد لله الذي ألهم وعلَّم الأنسان . . . وهم يعني التورذ أصل قبيلة الفلان ولغتهم

(1) محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان بجمع تاريخ بلاد السودان، مخطوط، ورقة 15 - 16

(2)- موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقم 63 .

(3) نفسه والورقة 48 .

هي لغة الفلان وماذكر عن قبيلة الفلان، بجمع بنت ملك التورود تزوجها عقبة بن نافع الفهري، فأنجبت له أربعة أولاد دعب وباس ورعب ووى ، فولد دعب فيعى، وتضم قبائل سنغي وغيرهم، وباس ولد البعاويين فمنهم قبائل وُلرُب ، ووى ولد قُرب وهي مشهورة عند الفلان، ورعب ولد والرب، وجزءاً من أبناء هذا الفخذ كان أمراء على الفلان »[1].

وأورد محمد بن عثمان بن فودي في موضع آخر أصل التوروذ بقوله :

«أصل التوروذ على حد علمي أنهم من نصارى الروم، وصلت اليهم جيوش الصحابة فأمن ملكهم وزوج بنت عقبة بن عامر الصحابي المجاهد أمير المغرب، فولدت قبيلة فلان المشهورة انتهى»[2].

يورد صاحب المخطوط أنه استقى معلوماته عن أصل الفلان من الحسن البلبالي الذي أخبره المعتمد عندهم في فوت، وهو مقر الفلان، أن أصل التوروذ بنبر من أهل السودان، سار من جاو ملكهم تور إلى فوت بجانب النهر وسيطر عليها[3].

وقد ذكر ابن فودة في موضعين أصل الفلان، في الأول يقول البعض ينادي (أن الفلان من اليهود)[4] والدليل على ذلك حبهم للبقر والتمسك بالعصي[5].

وأورد بن فودي بيتين في أصل الفلان، يتفقان في مضمونهما مع ماأورده موسى بن أحمد السعدي، ويختلف معه في تركيبة بعض من إخوتهم، وهم :

---

(1) محمد بن عثمان بن فودي، نسب الفلان، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 650 ورقة 1-2.

(2) ـ محمد بن عثمان بن فودي، نسب الفلان، مخطوط، ورقة 2.

(3) نفسه والورقة.

(4) يشتغل اليهود منذ عام 1980م على قبائل الفلان في منطقة تنبكت وجاو وأقدز وزند، ويؤكدون لهم بأنهم بقايا من الفلاشة، واستطاعوا إرجاع مجموعات منهم إلى الأرض المحتلة.

(5) محمد بن فودي ، إنفاق الميسور ، في تاريخ بلاد التكرور، مكتو: الناشر الحاج طن أغي طابير يرو، 1964، ص 223.

بنو تور إخوان الفلانيين من عرب لعرب فمن روم بن عيصو تفرعوا

وعقبة أبو كل الفلانيين من عرب ومن تور كانت أمهم هي تجمع[1]

كما أورد عبد الله بن فودي أن الفلان من بنبارة السودان، وعندما جاء الفاتحون المسلمون اعتنقوا الإسلام، وطلبوا من أمراء الإسلام أن يتركوا لهم من يعلمهم أصول دينهم، فتركوا لهم عقبة بن نافع، وقد جلس ليعلم الناس الدين الإسلامي، وتزوج عقبة ابنة أمير التورد (بج منغ)، وأنجب أبناء يتكلمون بلغة غير لغة أبيهم، ثم رجع عقبة إلى بلاده[2].

وأمام اختلاف هذه الآراء حول أصل الفلان، فإني أميل إلى ماذهب إليه محمد محمد المفتي مرحبا، والشيخ عثمان بن فودي، في نسب الفلان وصاحب مخطوطة خبر السوق، لأنهم يؤكدون أن أصل الفلان من نسل عقبة بن نافع الفهري، وذلك للأسباب الآتية :

1 - من خلال زياراتي لمنطقة السودان الغربي، وإلى مضارب خيام الفلان في ليرة، وتنبكت، وقندام، وجاد، وجني، وأقدز، وطاوه، وكنى، وغيرها من أماكن تواجدهم، واتصالي ببعض من مثقفيهم عمر سيسه ومحمود محمد الطاهر وبوبو ولد سيدي وغيرهم، أكدوا إليَّ بأنهم عرب، وأنهم من نسل جيش عقبة بن نافع الفهري، الذي تركه على ضفاف نهر النيجر.

2 - وكذلك من الوجهة المنطقية، كيف لقائد فاتح ناشر للإسلام في أدغال أفريقيا، أن يرجع بكل جيشه، والإسلام مازال في بدايته؟ وكذلك كيف لجيش أن يبقى في المنطقة، منعزلاً عن نفسه، دون أن يختلط بالسكان الأصليين؟.

3 - جل الآراء التي وردت في أصل الفلان تورد عقبة بن نافع، وإن اختلفت الأساليب في العرض .

---

(1) حمد بن فودى، انفاق الميسور، المصدر السابق ص 222 .

(2) عبد الله بن محمد بن فودي، ضياء السياسات وفتاوى النوازل، تحقيق أحمد محمد كاني، الزهراء للإعلام العربي 1988، ص ص 11 - 12 .

4 - إن ما ورد أن الفلان من قبيلة الفلاح القبطية، القاطنة في مصر، وأن لغتهم ماتزال في مصر، كلام مردود على أصحابه. وقد سألت من لهم دراية بذلك في مصر، حول هذا الموضوع، فأكدوا لي عدم صحة هذه المعلومات، وأن لا أحد في مصر يتكلم لغة الفلان .

5 - تتكلم بعض القبائل العربية، في اليمن لهجة الفلان، وهذا يسند وجهة نظرنا في عروبتهم. أما القول بانتساب قبائل الفلان إلى عقبة بن عامر، فهذا أمرٌ مردودٌ على أصحابه، لأن عقبة بن عامر قتل يوم اليمامة، زمن خلافة أبي بكر الصديق.

6 - أما ماورد من أن الفلان من اليهود، نظراً لحبهم للبقر، وتمسكهم بالعصا، فهو دليل واهٍ، لايستند إلى الحقيقة العلمية. فكيف لنا أن ننسب شعباً اعتماداً على بعض مظاهره الخارجية، إذ لو كان الأمر كذلك، لكان الأحرى والأجدى بنا أن نؤصلهم إلى الهنود، لأنهم لايحبون البقر فقط بل يقدسونه.

أشهر قبائلها :

وردت عدة آراء حول تسمية فوت طور، نورد منها الآتي :

الرأي الأول :

1 - ترجع فوت طور إلى فل وسبات ووسبات بمعنى البيضاني

أما الرأي الثاني :

يقول إن فوت طور اسم رجل، واسم والده إسماعيل، ويحتمل أن يكون لقب أهل قبيلة طور مشتقـًا من اسمه، وغلب على غيرهم أسماء آبائهم أو أسماء بلدانهم أو غير ذلك.

الرأي الثالث :

يقول إن فوت اسم ولد لحام بن نوح عليه السلام، وأن لحام أربعة أولاد :

كوش ، ومضر، وفوت وكنعام. فكوش والد أسلاف الحبشة، ومضر والد المصريين أي القبط ، وفوت والد الفوتيين ، وكنعان والد السوريين، الذين كانوا متوطنين بسواحل الشام.

الرأي الرابع :

يقول : إن اسم فوت، يدل على الأقوام الليبيين الأوليين، أي أهل جبال برقة وماحولها من قبائل العرب المغاربة الذين نزلوا بهم فيما بعد.

أما لفظ فوت فيعني قطف الزهور[1].

الرأي الخامس :

يقول تعني التوروذ بالفلاني تورذ بي وبالهوسا (نورنكاوا)، يقال إن هذه المجموعة هاجرت إلى بلاد الهوسا في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تحت قيادة موسى حكل، فقد أورد بن فود قائلاً :«موسى هذا هو الذي جاء مع قبيلتين من أرض الغرب، التي هي فوت [يعني بها فوت تورد حاليا في السنغال]، وهو من رؤسائهم؛ حتى وصل بهم إلى أرض كن»[2].

وأمام هذه الآراء.. فإني أميل إلى الرأي الرابع، وذلك لسببين، هما :

1 - أن عدداً من الآراء، تقول : إن الذين حكموا إمبراطورية غانا، مهاجرون من برقة بليبيا، إذًا الموجات البشرية القادمة من برقة بليبيا قديمة، وربما كانوا أبناء عمومة حكام غانا الذين سبقوهم إلى تلك الديار، وأرادوا اللحاق بهم؛ وخاصة أن الرأي الأول يفسر أن فوت طور تعني فل وسبات ووسبات، تعني البيضان؛ أي العرب.

2 - أن أغلب الهجرات، التي جاءت من اليمن، والجزيرة العربية، كانت تأتي عبر مصر، مروراً بليبيا والمغرب الأوسط والأقصى، إلى السودان الغربي؛

(1) ـ موسى بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة 49 - 50 .

(2) نفسه وورقة 50 ـ 51 .

فمثلاً قبيلة أولاد سليمان المنتشرة، في موريتانيا و تشاد، ولديهم أبناء عمومة في ليبيا، لايستبعد قدوم فوت طور من جبال برقة بليبيا.

تقسيماتها :

تنقسم قبائل الفلان إلى عدة أفخاذ، هي :

1 - فخذ جل وجدهم رعب به.

2 - بر وجدهم وي بر.

3 - أسَ سُه.

4 - به أبوقبيلة رعب به.

5 - فل ومهمته رعي المواشي بما فيهم البقر .

6 - سلناب.

7 - وونوب.

8 - ليدب.

9 - جايب (وديب).

10 - وياليالب.

11 - وآنانب.

12 - فخذ سحب.

13 - وفخذ خنجب.

14 - فخذ جعفرب.

15 - فخذ وسيب[1].

---

(1) موسي بن أحمد السعدي، مخطوط، ورقة، 49 ـ 54.

كذلك من أشهر قبائل الفلان قبيلة (بورورو)، وهم يمثلون كثافة سكانية في مدينة ساي وداكورو ومين سورو[1].

نظام الحكم عندهم :

الأمير :

لكل قبيلة من قبائل الفلان أمير، يسير شؤونها في تلك المدينة أو المنطقة، ويعتبر السلطة العليا، وله حق القرار في السلم والحرب، وفي مدينة تنبكت كان أميرها زمن السلطان منسا موسى الحاج محمد الحسكي[2]، وفي عهد دولة سنغاي كان أميرها كاوور[3]، والأمير الشيخ بن عبيد بن عمرو بن العامي، والأمير السيع بن عبيد[4].

الشيـخ :

كان لكل فخذ من أفخاذ الفلان شيخ يأتمرون بأمره، وهو المسؤول عن حفظ الأمن وفض المنازعات . أما في حالة الانتقال سعيًا وراء الماء والكلاء، فإنه يرجع إلى الأمير في ذلك؛ بقصد الاستشارة والإعلام. وكان شيخ بلدة جاغ الشيخ محمد فاطم بن محمد توري في فترة دولة سنغاي[5].

الامـام :

الإمام منصب روحي عند قبائل الفلان، والذي يتولى هذا المنصب يشترط فيه

(1) عبد الله بن فودي، إنفاق الميسور ، المصدر السابق ص 223 وجبريل بكري أمادو، النيجر، بحث غير منشور ، ورقة15 .

(2) محمد محمد المفتى (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط ورقة 112 .

(3) مجهول ، رسالة من جماعة الفلان الذين في تنبكت، وخصوصاً الأمير كاوور إلى جماعة تنكير بكيف عموماً، وخصوصاً أواب وقندكم، مخطوط مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 2509، ورقة 1 .

(4) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113، مجهول رسالة إلى جماعة الفلان؛ وخصوصاً الأمير كاوور مخطوط ورقة 1 ،

(5) ـ محمد محمد المفتي (مرحبا) التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 100.

أن يكون حافظاً للقرآن الكريم ، ومتبحراً في الفقه، واللغة العربية، ونحوها.

للإمام خيمة معروفة في كل جماعة من جماعات الفلان، يحفِّظ أبناءهم القرآن الكريم، ويعلمهم تعاليم الدين الإسلامي، وإليه المرجع في المسائل التي تشكلُ عليهم.

ومن أشهر الرجال الذين تولوا منصب الإمامة (كولافون جلو)، وهو من العلماء الأجلاء، وله مؤلفات وشروح في الفقه، والنحو، وغيره، وكذلك من الذين تولوا منصب الإمام الحاج لب الفلاني[1].

مكانة قبائل الفلان فى السودان الغربي، ودورهم في نشر الإسلام :

مثلت قبائل الفلان ثقلاً سياسيًا واقتصاديًا، وروحيًـا، جعلها تأخذ الصدارة في المنطقة، وقوة يحسب حسابها إلى يومنا هذا.

قال عنهم محمد محمد المفتي (مرحبا) :« فعلمنا من ذلك حقاً أنهم من سلالة عقبة؛ حيث كانوا يعملون على نهجه ويجددون بنيانه »[2].

وهذه العبارة تدل على أصالة هذه القبائل، التي تنتسب إلى القائد العربي عقبة ابن نافع الفهري.

وقد تسابق ملوك السودان الغربي، لكسب ود قبائل الفلان، بمناصرة عديد منهم على خصومهم من القبائل الأخرى، فقد تدخل الملك منسا موسى، ملك مملكة مالي الإسلامية، بعد رجوعه من الحج لصالح ماما، المسمى الحاج محمد الحسكي الفلاني، أحد زعماء الفلان ضد خصمه، ومكنه من الاستقرار هو وقبيلته في تنبكت، وجني، وجاغه[3]. إلا أن الملك منسا موسى وأتباعه لم ينج من خطر الفلان، فقد نشبت حروب بين قبائل الفولبي دينياني، بقيادة تنغيلا وابنه كولى استمرت من (890- 914هـ) 1481 إلى 1514م، أسفرت هذه

(1) ـ محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113.

(2) - محمد محمد المفتي (مرحبا)، فتح الحنان المنان في أخبار السودان، مخطوط، ورقة 17.

(3) ـ محمد محمد المفتي (مرحبا)، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 113.

الحروب عن فقدان مملكة مالي سلطتها على مرتفعات فوتا جالون، وبذلك حصل لها ضعف في الاتصال بمقاطعاتها الغربية، باتجاه غامبيا والكازامنس شمالا، وقد شهدت نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وبداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فتناً في الطريق الرابطة، بين أطراف مالي الغربية والشرقية، أدت إلى ضمور في تجارة الذهب؛ لأن التجار الذين كانوا يترددون على أسواق سوتوكو، أجبروا على أن يسلكوا دروباً أخرى متعرجة، لضمان سلامة تجارتهم، الأمر الذي جعلهم يقضون في الطريق فترة طويلة، تصل إلى ستة أشهر. لقد وصلت انتصارات قبائل الفلان بقيادة الأب وابنه، أسماع البلدان المجاورة لمنطقة السودان الغربي، وعززتها بعبورها نهر غامبيا، من منفذ سمي بعد ذلك باسمهم ممر الفلان. وعند وصول جيوش الفلان منطقة البوندو، قسم الأب وابنه حركة التوسع؛ فاتجه تنغيلا نحو مملكة ديارا، بينما توجه كولي نحو غزو الفوتا[1].

توجه القائد الفلاني تنغيلا صوب مملكة ديارا، على أمل الانتصار عليها، إلا أن حساباته كانت خاطئه، فانهزم جيشه وفقد حياته على أيدي عمر كمزاع شقيق أسكيا الحاج محمد.

أما ابنه كولي، فقد غزا الفوتا - تورو والدجولوف، واستطاع الانتصار على الأمراء المحليين المنقسمين على أنفسهم بسهولة ويسر، وأن يكون إمارة اتخذ إقليم غور حاضرة لها.

وقد انطلق منها في حروبه ضد الدجولوف، وفتح عدداً من أقاليمها، ونشر فيهم الرعب، واستولى على أغلب أراضي الوولوف، ولم يبق في حوزة الدجولوف إلا الأراضي الجنوبية، البعيدة عن النهر، واستمرت سيطرة الفوتا على الدجولوف إلى منتصف القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي[2].

(1) مادينا لي - نال، تدهور إمبراطورية مالي، تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، ص 192.
(2) مادينالي ـ نال ، المرجع السابق ص 193.

لقد حاولت قبائل الفلان أن تفرض نفسها على جل الممالك، التي قامت في السودان الغربي، بخلق تحالفات مع غيرها من القبائل الأخرى، حتى التي لاتدين بالإسلام، وشكلت هذه التحالفات، خطورة على إمبراطورية سنغاي، زمن السلطان أسكيا الحاج محمد، ونستشف هذه الخطورة من السؤال الذي توجه به أسكيا الحاج محمد للعالم محمد عبد الكريم المغيلي، و نصه : « وأيضًا جوابكم في المحاربين من فلان وغيرهم معهم أناس من مسوفة وغيرهم، يزعمون أنهم مسلمون، وهم ساكنون معهم ملازمون لهم، في الرحيل والنزول ويخالطونهم في كل شيء من أموالهم، وأمورهم، وخيلهم، مع خيلهم، يغزون معهم ويحاربون معهم، هذا هو غالب أحوالهم، ومنهم من كان معهم ولايحارب معهم، وجيء بهم إلينا فقالوا مانقدر على الخروج عنهم مخافة أن يأخذونا، وإن خرجنا يأخذنا غيرهم، لأنا مساكين لانقدر عن الدفاع عن أنفسنا، فرددنا إليهم أموالهم، وقلنا لهم افترقوا منهم، فهل نترك غزو المحاربين لئلا نضر أولئك المسلمين، الذين هم معهم، وأبوا أن يفارقوهم، أو لابد من غزوهم، وإن كانت المضرة تلحق من معهم من المسلمين المذكورين ، فقد شوشنى في ذلك بعض فقهاء بلدنا، حتى توقفت عنهم »[1].

جواب المغيلي عن السؤال مفاده محاربة المحاربين بغزوهم، وإذا ماأصيب أحد من المسلمين الذين بينهم، فلا جناح عليكم؛ لأن المسلمين الذين بينهم ظلموا أنفسهم بتواجدهم معهم، وحتى أموالهم إذا فسدت فلا شيء عليكم، وإذا غنمتم شيئًا من أموالهم، يقصد المسلمين، فردوه إليهم[2].

من خلال سؤال أسكيا الحاج محمد وجواب المغيلي، يتضح الآتي :

1 - حالة الهلع والخوف التي كان عليها السلطان أسكيا الحاج محمد، وتخوفه من قوة الفلان، وإظهار نفسه بالقوي الذي لايلوي له عنان.

---

(1) محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة أسقيا وأجوبة المغيلي ، المصدر السابق، ص59.

(2) نفسه ، ص 61.

2 - الدبلوماسية التي يتمتع بها أسكيا الحاج محمد، بعدم إظهار خوفه من قبائل الفلان، وتقديم نفسه لهم بحرصه عليهم، وأنهم لايمثلون شيئًا إذا ما أراد تأديبهم، واستخدام المغيلي باعتباره طرفاً محايداً .

3 - أعطى لنفسه الشرعية في ضرب الفلان، باستخدام الحق الشرعي المنبثق من الشريعة الإسلامية، باستفتاء العالم محمد بن عبد الكريم المغيلي .

4 - تكشف لنا إجابة المغيلي في هذه الفقرة، وفي غيرها من الفتاوي، التي منحها لأسكيا الحاج محمد، ارتماء المغيلي في أحضان أسكيا محمد وتحقيق مآربه، فهو يفتي وفقاً لما يمليه عليه السلطان، لابما تمليه عليه الشريعة الإسلامية، وبذلك نحكم عليه بأنه من زبانية السلطان .

لقد كانت لقبائل الفلان تحالفات مع قبائل أخرى، وهذه الرسالة التي نقتطف فقرات منها تؤكد ذلك: « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على نبيه الكريم وبعد . فمن صافي تنبكت من الفلان عموماً وخصوصاً الأمير كاوور، إلى جماعة تنكر بكيف عموماً وخصوصاً سيدهم أو واب وفندكم وبعد؛ فالإعلام لكم أني رأيت براءتكم وقرأتها وفهمتها، ومافيها من نقض الصلح المبرم بيننا أن تعرضنا لأهل توات وغير ذلك [بياض] إن ماعزمنا ستسمعون ذلكم، أو ترونه إن شاء الله، وأما نقض [بياض] توات فمرحباً به وأهلا .

قال الشاعر :

فمرحباً به حين يأتي　　لاكذاب ولاعلل

وقال آخر:

لمتم وذقتم وماهو　　عنها بالحديث المرجم

بتوها ذحيمة وتضري　　إذا أضريتموها فتضرم

وأنتم إلى الصلح أفقر " :[1].

(1) مجهول ، رسالة من جماعة فلان الذين في تنبكت، وخصوصاً الأمير كاوور إلى جماعة تنكير عموماً، وخصوصاً أواب وفندكم، مخطوط، ورقة !!

من خلال النص السابق، يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي تكتب بها رسائل التهديد.

2 - اسم أمير الفلان واسم أمير خصمه.

3 - قبائل الفلان التي أميرها كاوور، كانت لها اتفاقيات ومعاهدات صلح، بينها وبين كل من : أهالي تنكير بمنطقة كيف بموريتانيا، وأهالي مدينة توات متمثلة في زعيمها. وأن هذه الاتفاقية نقضها زعيم تنكير وتوات.

4 - الأمير كاوور كان على درجة من القوة، التي يستطيع بها تأديب خصومه، ونلمس ذلك من عبارته التي يقول فيها: «إن ماعزمنا، ستسمعون ذلكم أو ترونه إن شاء الله، وأما نقض توات فمرحباً به وأهلا»، وبذلك هو في موقع قوة.

لقد تربعت قبائل الفلان على منطقة شاسعة من السودان الغربي، وحملت لواء نشر الإسلام في أدغال إفريقيا، واعتنقت جل أفخاذها الدين الإسلامي، منذ زمن الفاتح العربي عقبة بن نافع، ومايؤكد إسلامهم ما أفتى به أحمد بابا التنبكتي بأنه لايجوز استرقاقهم؛ لأن الغالب في قبائلهم الإسلام[1]. وقد أورد ابن فوديه في المسألة العاشرة في شراء فلاني السودان لأجل التمليك والاسترقاق قائلا :« . . . إن شراء فلاني هذه البلاد لأجل التمليك والاسترقاق لايجوز في معظمهم . . . لأن الغالب في قبائلهم الإسلام»[2].

ومن خلال الرسالة التي وجهها العالم أحمد البكاي بن محمد بن المختار ابن أحمد، إلى قبائل الفلان، يتضح إسلام جلهم، ولو أن الرسالة متأخرة عن فترتي، إلا أني أوردتها لأن المدة بين الفترة التي نكتب عنها، وفترة الرسالة

(1) أحمد بابا التنبكتي ، الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، رقم 1170، ورقة 2.

(2)- عثمان بن فودي، مهمة تحتاج إلى معرفتها أهل السودان، مخطوط، مركز أبحاث النيجر، رقم 100، ورقة 21 .

ليست بالفترة البعيدة، وهذه فقرة منها :«إلى جميع الإسلام من قبائل الفلان، وبعد نهنيكم والحمد الله على نصركم على الأعداء، وزادكم الله نصراً، وأصلح لكم دينكم وآخرتكم التي خير وأبقى»[1].

لقد أنجبت قبائل الفلان قادة وعلماء أفذاذ، لعبوا دوراً بارزاً في نشر كلمة الإسلام خفاقة وإعلاء رايته من أمثال: الأمير الحاج محمد الحسكي والأمير كاوور، والأمير الشيخ بن عبيد العامي، والعالم محمد فاطم بن محمد توري، والإمام لبُ الفلاني. ومن المتأخرين القائد والمجاهد، والعالم عثمان بن فودي الذي انتشر صيته شرقاً وغرباً، وأسس دولة إسلامية، كان لها دورٌ بارزٌ في حركة اليقضة الإسلامية الأفريقية، والعالم أحمد بلو بن عثمان، وغيرهم من الذين لايسعنى ذكرهم في هذه الدراسة.

أما عن طبيعة شعب الفلان.. فإنه تغلب عليه الطيبة، وهذا ما أكده عبدالرحمن السعدي حينما تكلم عن قبائل جلف فأورد :«... وأما جلف فهم خيار من الناس فعلا وطبيعة وطبايعهم تباين طبائع سائر الفلانيين في كل وجه، وخصهم الله تعالى بمحاسن الأخلاق ومكارم الأفعال، ومحامد السير، وهم في تلك الناحية الآن بقوة عظيمة ومتنة جسيمة، أما النجدة والشجاعة فليس لهم نظير فيها، وأما العهد والوفاء فمنهم ابتدأت وإليهم انتهت في تلك الناحية»[2].

وهذا النص فيه إشارة لقبائل الفلان، لأنه قارن طيبة جلف، بطيبة سائر الفلان، أي كل الفلان، الأمر الذي يؤكد عراقة هذه القبائل وأصالتها؛ حتى صارت مضربًا للأمثال بين القبائل الأخرى، وقوة لها وزنها في منطقة السودان الغربي.

---

(1) ـ أحمد البكاي بن محمد بن المختار بن أحمد يبعث برسالة إلى قبائل الفلان، دار معمر القدافي، لجمع الثرات العربي الأفريقي بجاو، دون تصنيف، ورقة 1.

(2) ـ عبدالرحمن السعدي ، المصدر السابق، ص 78.

قبائل البرابيش :

تسميتهم ونسبهم:

لم أعثر على تسمية البرابيش، ولا من أين جاءت التسمية في المخطوطات والمصادر والمراجع، التي تمكنت من الإطلاع عليها، إلا أني خلال جمعي للرواية الشفوية، بمنطقة أفريقيا فيما وراء الصحراء، في السنوات الماضية، حصلت على أكثر من راوٍ، ذكر لي سبب التسمية فمنهم من يرجعها إلى أن الأفخاد التي تتكون منها البرابيش، جاءت من مناطق مختلفة لا يجمعها رابط إلا الائتلاف السياسي، فأطلقوا على كافة الأفخاذ تسمية موحدة، وهي البرابيش .

بربش وتعني بربش عند أهل السودان الغربي[1] أي وزع الشيء. أما الرأي الثاني فيفيد أن لفظ بربيش، أطلقها زعيم فخذ أولاد سليمان على باقي الأفخاذ؛ نظراً لأن هذا الفخذ من أهم الأفخاذ[2].

أما نسبهم ، فقد أورد صاحب الترجمان، أنهم ينتسبون إلى بني حسان، وهم من ضمن الهجرة الهلالية إلى الشمال الأفريقي[3]. وجاء بول مارتي، وأفاد بكل ثقة من أن البرابيش ينتمون إلى ثلاث فئات: الأولى مجموعة عربية مغاربية طارقية، والثانية والثالثة مجموعتان عربيتان (حسان أولاد حم ، وحسان أولاد رزق)[4].

حاول بول مارتي تقريب الصورة أكثر، بتقسيم أصول البرابيش، إلا أنه وقع في لبس، عندما أفاد أن المجموعة الأولى ترجع في نسبها إلى الطوارق، وكأنه يريد أن يقول لنا : بأن الطوارق ليسوا من الهجرات العربية الأولى، التي جاءت من اليمن، وأنها جنس آخر، فما ذهب إليه صاحب الترجمان، أقرب إلى الصحة من غيره.

---

(1) - يطلق أهل تنبكت على كل شخص يميل إلى السمرة بربوشي.

(2) - الهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء، مرقون تحت الطبع ، ورقة 60.

(3) - محمود الأرواني، الترجمان ، مخطوط، ورقة 94.

(4) - بول مارتي، البرابيش بنو حسان، عربه وعلق عليه محمد محمود ولد واداي، دمشق ، مطبعة زيد بن ثابت، 1985 ط1 انظر الملحق ص.

أما عن موطنهم، فإنهم يتركزون في ولاته، والنعمة وليرى، ومنطقة أروان "وفي أبو جبيهة"، وتنبكت، وقندام، ودونتنزا، وبوري، وموبتي، وهبري، وقوسي وجاو. كما ينتشرون في عدد من قرى بوركينا فاسو، والسنغال، ونيجيريا وتشاد[1] وإقليم السوس وتشيت[2].

تقسيماتهم :

تنقسم البرابيش إلى ستة عشر فخذًا، وينقسم كل فخذ إلى عدة بطون، وهم:

1 - فخذ أولاد سليمان وينقسم بدوره إلى عدة بطون، وهي:

أ - أولاد سليمان الأصليون ــ أهل رحال، أهل مرزوق بن الشيخ، أهل يوسف الكبار، أهل يوسف الصغار .

ب - أولاد اسعيد جدهم سعيد بن آد.

حـ- النهارات، وجدهم ناهر بن محمد.

د- أهل منصور، وجدهم منصور بن سعيد.

هـ- أهل السلام عليكم[3].

2 - أولاد غليان، وينقسمون إلى :

- أولاد غليان الأصليون أولاد أحمد بن إبراهيم .

- أولاد عبد الله بن إبراهيم .

- أولاد بو خصيب (أهل المجيد الغيرات).

---

(1)- وقف الباحث على أغلب مضارب خيامهم، خلال رحلاته المتكررة للمنطقة.

(2)- الحسن الوزان ، المصدر السابق، ج1، ص 54.

(3) محمد الأرواني، الترجمان، ومخطوط، ورقة 31 وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص 71.

3 - **أولاد أيعيش، وينقسمون إلى :**

- العلوتى
- صم.
- الحسن

4 - **أولاد إدريس، ويتفرعون إلى :**

- أهل امبارك.
- أهل عمارة.
- أهل حمود ادا.
- أهل بلة.
- أهل أعلى موسى.
- أهل عريب.

5 - **أولاد غنّام، ويضمون :**

- أولاد معريك.
- أهل حماد.
- أهل حدي.
- أهل بلدة[1].

6 - **أولاد عمران، وهم :**

- أهل الهادى.
- أهل الكوري.

---

(1) - مجهول ، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط ورقة10 ـ 11، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق ص ص 71 ـ 72.

- أهل المحافيظ.

7 - الكوانين الكحل، وهم :

- أهل بلال.
- أهل ولاد محمد ولد سيدي أحمد.
- أهل ياداس.

8 - الكوانين (البيض)، وهم :

- أهل دخنان.
- أهل الراحل.
- أهل أميلاه.
- أهل بو ابعير.
- أهل هيمة.
- أهل أعلى ولد ماما.
- أهل عمر.
- أهل حمدو.

9 - ركان، وينقسمون إلى :

- ياداس.
- الزريبة، وهذا الفرع يختص ببناء المنازل.
- أهل بكار[1].

---

(1)- مجهول ، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 12، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص ص 72 ـ 73، وبول مارتي، كنته الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق، مطبعة زيد بن ثابت، 1985، ص 226.

10 - السكاكنة ويضمون :

- أهل بوصيبع.
- أهل الكتي.
- أهل كيجاجا.

11 - أهل أروان، ويشملون :

- بني أحمد بن أيبر.
- أولاد بهدة.
- أولاد النواحي.
- أولاد الوسرة.
- أولاد تجكانت[1].

12 - أهل بو اجبيهة، وهم :

- أولاد عبد الرحمن، من الرحامنة الذين قدموا من المغرب، ثم ملكوا بوجبيهة ومنطقة أزواد[2].
- الآخظورات.
- أبناء عامر.

13 - الأخظورات.

14- أبناء عامر.

15 - الطرشان :

---

(1) مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 11، وبول مارتي، البرابيش، المرجع السابق، ص 73.

(2) محمود محمد الأرواني، الترجمان ، مخطوط، ورقة 17.

وهم من أولاد حسان، وهي قبيلة قليلة العدد، وتعتبر امتداداً لقبيلة الطرشان، التي تقطن بنغازي بليبيا.

16 – الأغلان :

وهي قبيلة صغيرة العدد، أميرها في فترة التواجد المغربي بالسودان الغربي، هو سيدي بن عروة[1].

17 - قبيلة الوسر :

جاءوا لازواد، أمن الشيخ سيدي أحمد بن صالح بسبب ثقلهم السياسي في المنطقة :

فخذ أولاد سليمان، هو أول فخذ يصل إلى منطقة السودان الغربي بالتحديد لمنطقة أزواد، وقد وجدوا أمامهم قبائل الطوارق، وحدثت بينهم حروب طويلة، انتهت بانتصار أولاد سليمان على الطوارق، وإخراجهم من المنطقة. وكان أميرهم، زمن مجيء جودر باشا، عيسى بن سليمان، واستمروا في أروان فتحول ثقلهم هناك. وعند مجيء عب بن مخلوف، إلى منطقة السودان الغربي، كان معه أولاده الأربعة وهم : عيسى، محمود، وأحمد، وسليمان.

ولما توفى عب بن مخلوف تزوج ابنه الأصغر سليمان من ابنة شيخ أولاد عبد الرحمن[2]. تولى إمارة أولاد سليمان، عدد من الأمراء منهم: عب ابن مخلوف، وعلي بن حمدان، واستمر يحكم إلى أن توفي، فتولى ابن عمه (حام بن يَدْل)، وكانت فترته قصيرة. وتولى ابن عمه حافظ بن عيش بن الحاج محمد.

---

(1) محمود الأرواني، الترجمان، ورقة 11 .

(2) نفسه، وورقة 31.

وفخذ أولاد سليمان من أهم الأفخاذ في قبيلة البرابيش، فهو يختص بالقيادة والعلم[1]. ويطلق عليه بول مارتي الفخذ الأميري[2].

وقبائل البرابيش متمثلة في أفخاذها وبطونها لا تجرؤ على التخطيط لأي غزو، مالم يكن فخذ أولاد سليمان هو المخطط . ولكن نادراً ما تحدث بعض التجاوزات في المهام، وبالإضافة الى هذا الدور القيادي اختص أولاد سليمان بالعلم[3].

أما فخذ الرحامنة. . . فيعتبر هو الآخر من الأفخاذ المهمة، وقد نزلوا بأروان عام تسعمائة هجري 900هـ / 1494م. وكان سبب مجيئهم الى أزواد خلاف وقع بينهم وبين أبناء عمومتهم، من أحواز مراكش، فهاجروا إلى أزواد، ونزلوا على الطوارق، ومن معهم وصاروا في حكم الطوارق.

وقبل قدوم جيش جودر للمنطقة انتصر الرحامنة على الطوارق وطردوهم، وأصبحوا سادة في أزواد، وأروان، ووصل نفوذهم تغازا. كما ناصروا جودر عند دخوله السودان، وكان الرحامنة على علاقة وطيدة بفخذ أولاد جلول، وأولاد أسعد، وأهل غليان والأخظورات والنهارات[4].

والجدير بالملاحظة أن أفخاذ قبيلة البرابيش، تختلف في القوة والمهام من فخذ إلى آخر، وتنقسم في المكانة إلى طائفتين:

الأولى فخذ أولاد سليمان، وأولاد عمران، وأولاد عيش، وأولاد إدريس، وأولاد غنام، وأولاد غليان، فهي تعتبر من أرقى الأفخاذ في البرابيش، ولاتعطي الغفر. أما القبائل التي تعطي الغفر، فهي ترمز، والسكاكس، وأكوانين أهل الكوروا[5] وتعتبر في المستوى الاجتماعي أقل من الأولى. ومن النادر أن تحدث

(1)- مجهول، تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 7.

(2)- بول مارتي، البرابيش، المرجع السابق ص 226، والهادي المبروك الدالي ، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء من خلال الرواية الشفوية، مرقون ورقة 49.

(3)- مجهول تاريخ أزواد في خبر البرابيش، مخطوط، ورقة 8 ـ 9 .

(4)- محمود محمد الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 21.

(5)- نفسه ورقة 94، والهادي المبروك الدالي، تاريخ أفريقيا فيما وراء الصحراء من خلال الرواية الشفوية، ورقة 55.

صراعات في قبيلة البرابيش، لأن مرد تلك الصراعات، في الأغلب الأعم يعود للزعامة، ومن بين الحوادث التي حصلت بينهم موقعة (نبكة حام)، التي انقسموا على إثرها الى طائفتين :

طائفة أولاد عامر، وأولاد سليمان، وأولاد أحمد. أما الثانية فتضم أولاد عمران، وأولاد عيش، والمحافيظ ومن في حكمهم، وبعد صراع دام ست عشرة سنة تصالح أولاد عيش، وأولاد عمران، والمحافيظ مع أولاد سليمان، وأولاد أحمد على أن يكون أميرهم محمد ولد حافظ بن عيش بن الحاج محمد ابن سليمان،ثم ثار عليه ابن عمه محمد بن يوسف، وأخذ منه الإمارة قهراً. وقد ناصره على خصمه قبيلة الطوارق، وعرب القبلة فقتل أميرهم المدعو محمد الأمين، ثم تصالحوا بعد ذلك، والحوادث في هذا الخصوص كثيرة، إلا أننا أوردنا حادثة، لم يؤخذ منها، كدليل على ثقلهم السياسي في منطقة السودان الغربي :

دورهم القيادي فى المنطقة :

مثلت قبائل البرابيش، في منطقة السودان الغربي ثقلاً سياسياً واقتصادياً بحسب حسابه، وقد تسابقت القوى السياسية، التي قامت في المنطقة على كسب ودها؛ من أجل استمراريتها في الحكم. ففي عهد سنغاي كان جل سلاطينها على علاقة وطيدة بأمراء البرابيش، بل أشركوهم في إدارة الحكم وتسيير الجيش، فكان عدد من الوزارات يسيرها رجال من البرابيش، إضافة لذلك فقد تزوج عدد من سلاطين سنغاي نساء بربشيات، وخاصة من فخذ أولاد سليمان، فقد تزوج أسكيا الحاج محمد منهم، وابنه الذي تولى الحكم من بعده امرأة سليمانية، واستمرت العلاقات بينهم إلى فترة تطلعات المغرب على المنطقة؛ فتحولت أنظار البرابيش إلى مساندة جيش السلطان المنصور الذهبي، وتزكيته، وخاصة الفخذ القادم من المغرب الأقصى، باعتبارهم من أبناء جلدتهم[1].

(1) محمد محمد المفتي، (مرحبا) ، التاريخ الخاص بالتواتر، مخطوط، ورقة 22.

وهذه الوثيقة التي نوردها، تؤكد عمق التلاحم بين البرابيش والمغرب ، فهي عبارة عن رسالة مشتركة، بعث بها زعيم البرابيش سيدي محمد بن أمهد وإسماعيل بن إبراهيم المغربي، إلى سيدي أحمد بابا التنبكتي، أحد الزعماء الروحيين لمنطقة السودان الغربي، تقول الرسالة : «الحمد لله وصلى الله على محمد ومن تلاه، وبعد فالسلام الذي لا يباهى، والتحية التي لا تتناهى، أحلى من العسل مذاقاً وأطيب من المسك استنشاقاً وكالقرآن ترياقاً. من إسماعيل ابن إبراهيم وبن المغربي ومحمد بن أمهد، إلى من لا زالت الأيام تساعده والآفات تباعده، يعنيان بذلك من أطال الله عمره وأدام عزه ونصره، وكبت عدوه ذاك الفقيه الشريف العامل ذو المجد المنيف القاضي أحمد بابا حمد لله مسعاه وجعل الجنة مثواه حفظه الله ورعاه وأيده وآواه موجبه إليكم إنما بلغهما كلامكم ودخل فيها مدخلاً عظيماً واشتريه غاية جزاكم الله خيراً، واليوم الله الله ثم الله لاتترك الدراهيم الذي في الأكوانين ساعة وقم في أمرهم على ساق الجد غاية، واعلم أنك وكيله يعني إسماعيل على عبد آل أو ليكن لأنه هو وهو تعاقبا في الطريق والله والله لا يخرج من تنبكت حتى تأخذ ما فيه ما بينهما من المسألة التي بينه وبين البشير الجكي وأسال عبد آل بن حمادين أو الواني بن عبد الرحمن عن ما يدخل فيه عبد آل أو تيكن؛ لأنهما يعلمان مدخله في تنبكت جزاكم الله عنه وعن المسلمين خيراً، والذي أخذتم من السودان فأدمغه لسيل إلى علي، والسلام عليكم ورحمته وبركاته بكرة وأصيلاً.

تصل إنشاء الله بيد القاضي الفقيه الشريف سيدي أحمد بابا بن أبي العباس حفظه الله من جميع الناس وراعاه من كل وسواس وخناس، بجاه محمد صلى الله عليه وسلم جده وعمه العباس[1]» .

---

(1) - إسماعيل بن إبراهيم المغربي، وسيدي محمد بن أمهد رئيس البرابيش، رسالة مشتركة إلى أحمد بابا بن أبي العباس التنبكتي، مخطوط، دار معمر القدافي لجمع التراث العربي الأفريقي ، دون تصنيف، ورقة واحدة.

نستخلص من هذه الوثيقة عدة جوانب مهمة، وهي :

1 - الديباجة والأسلوب اللذان كتبت بهما الرسالة.

2 - تحالف البرابيش مع المغاربة، والتنسيق بينهم في المواقف السياسية .

3 - مكانة أحمد بابا وعائلته في المنطقة من خلال عبارات الرسالة.

4 - تدخل أحمد بابا في مسائل مالية بين وكلاء لإسماعيل المغربي ومحمد ابن أمهد .

5 - كونها ردًا على رسالة كان أحمد بابا التنبكتي قد بعث بها إلى إسماعيل المغربي ومحمد بن أمهد.

6 - الإفصاح عن عدد من الشخصيات من قبيلة البرابيش ومن قبائل أخرى.

7 - الطريقة التي تتم بها كتابة خواتم الرسائل بالدعاء للمرسل إليه مثل حفظه الله من جميع الناس وفي وسواس خناس.. إلخ.

8 - أحمد بابا كان على علاقات مع المغاربة.

وهذه رسالة أخرى تؤكد قوة البرابيش في المنطقة، وكيف أن فخذًا واحداً منهم يحسب له حساب، وهذا أمير منطقة بحالها، وحالة الهلع التي عليها أمير أولاد علوش بن هنون، وهذه فقرات من رسالة التهديد، والتي تقول :

النص: « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً، حمد من جعل سيف الحق قاطعة، وكل إفك وزور طامحة، القائل، أن الله لا يهدي كيد الخائنين ولا يصلح عمل المفسدين، وأن العاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين والصلاة والسلام على مفضح أسرار المنافقين، وعلى آله وأصحابه غيظ الكفار والمعاندين. هذا وأنه من البطل الصنديد ذي الوطئ الشديد، رقاب المارد العنيد الأمير السديد حامد بن الشيخ أمير المؤمنين الإمام أحمد بن محمد سبط المجد التليد أبي بكر بن سعيد، أسعده الله في الدارين ووقاه شر الكونين وأنالـه خير الدارين إلى عاملنا، زعما

ورعينا رغما سيد ولد هنون عليك سلام، أن بقى بيننا وبينك سلام وبعد فسببه إليك إعلامك بأن ماخفى على فعلتك بنا بتهديدك رعيتنا جملة زوايا ماكرتيل من زوايا المساكين، الذين لا دافع إلا العلي القدير الكفيل، وغيرهم من سوادين تيك بنون وتركينغ وفتكر وخصوصاً أهل بنت غنغ الذين رعدت عليهم برعدك الخالبة وبرقت عليهم ببرقك الكاذبة، أو لم يعزموا لك لتفعلن كيت وكيت ولتجعلنها عليهم رماداً . . . ولم يزل قبل ذلك تتراءى عليّ بربواتك منذ قدمت هنا، واعرض عنك في ذلك كله، حتى علمت أن الحلم منك كالحلم، والجهل عليك أمثل في العدل. والآن ياولد هنون فو الله الذي تسيل دماؤنا لأجله لم تنهى عن دماؤنا بعدك وإعزاز نفسك علينا، وفسادك وعن تخويفاتك الكاذبة . . . لأجعلنك عبرة لجميع علوش وقبيلة بربوش ولأضيقن عليك هذه الأرض برحبها خيولاً ورجالاً بحول من له الحول والقوة، وما رأيت أحد أجرأ على عرب مغاربة الشرق وطوارق الغرب مثل جرأتك . . . . وما صدر منك لهذا إلا سخاوة عقلك وقلة فهمك، وإن كنت على العهد المعهود بينك وبين أخي أمير المؤمنين، فأقدم إليّ بنفسك حتى أقرأ عليك كتابك الذي أرسل إليّ في هذه الأيام، وإن أبيت فاعلم أن حينك قد حان . . . والسلام يعود عليك إن تركت بيننا وبينك محبة والسلام الحار، وأنت ياطاهر محمد قد بلغني ما أنت عليه والعاقل تكفيه الإشارة وغيره لا يسمع إلا دعاء ونداء، إن كنت بريء مما قالوا عليكم فقدم وتبرأ بنفسك، وإلا فلا تلومن إلا نفسك والسلام»[1].

من خلال النص السابق يتضح الآتي :

1 - الديباجة التي كتبت بها الرسالة من البسملة والتصلية على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) الأمير حامد بن الشيخ أمير المؤمنين الإمام، أحمد بن أبي بكر سعيد، يبعث برسالة إلى سيدي بن هنون أمير أولاً علوش، مخطوط، مركز الشيخ المختار الكنتى بجاو، دون تصنيف، ورقتين.

2 - تظهر من بدايتها للقارئ القوة والحسم لمرسلها.

3 - قوة البرابيش، وكيف أن فرعاً واحداً، زعزع أمن أمير له قوة عسكرية ضاربة بتهديد رعاياه.

4 - منطقة السودان الغربي كانت بها زوايا لحفظ القرآن الكريم وتدريس الدين الإسلامي .

5 - كشفها عن عدد من أسماء قبائل السودان الغربي .

6 - حالة الهلع التي كان عليها الأمير حامد، ومحاولته إظهار نفسه بالقوي، من خلال عبارات: برعدك الخالي وبرقك الكاذب. . الخ.

7 - الصورة التي يخاطب بها أمير تنبكت أمير أولاد علوش أنه تابع له رغم أنفه.

8 - يذكر الأمير حامد خصمه بأن هناك اتفاقية حسن الجوار بين بن هنون أمير أولاد علوش، وشقيق الأمير حامد منذ أمد بعيد.

9 - أمير أولاد علوش كان له مناصرون. وعبارة الأمير حامد وأنت يا طاهر محمد قد بلغني مانت عليه فيها إيحاء بذلك .

10 - أفخاذ البرابيش كلها تعقد اتفاقيات منفردة، الأمر الذي يكشف عدم وحدتهم، على الرغم من قوتهم.

11 - الحنكة السياسية التي يتمتع بها الأمير حامد، بمحاولته تنحية الطاهر محمد من الدائرة بدعوته لتبرير مانسب إليه.

استمرت قبيلة البرابيش تمثل الثقل السياسي في المنطقة، بل ازدادت في فترة الحضور المغربي بالسودان الغربي. وهذه الحادثة تؤكد ذلك، عندما استنجد القاضي عمر من بطش محمد بن زرقون، بشيخ أولاد عبد الرحمن عيسى ابن سليمن البربوشي، في تغازا، ودخل في حمى الأخير، فحماه من محمود ابن زرقون وأوصله بنفسه الى بلدة (واد)[1].

(1)- عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق، ص 172.

وهذه الرسالة تؤكد ثقل البرابيش في المنطقة، وهي رسالة إلي جماعة أكلاد وخصوصاً أميرهم انغلالن بن حوالن، تبين أهمية أمهمد بن أحمد زعيم البرابيش. تقول الرسالة : «السلام والإكرام العام إلي جماعة أكلاد، وخصوصاً كبيرهم أميرهم انغلالن حوالن وبعد بلغني أمهد بن أحمد ماتقاولتم معه، وأنك يانغلالن كنت تريد أن تأتيني معه... ولو جعلت لكان خيراً ان شاء الله إن كنت من أهل الخير...»[1].

كما شكلت قبائل البرابيش ثقلاً اقتصادياً في منطقة السودان الغربي بأن سيطرت على طرق القوافل الذاهبة، والقادمة من الشمال الأفريقي، فكانت تأخذ (الغفر)[2] على كل وارد من تجار غدامس، وتوات، وتجاكنت، وأولاد بالسبع وأهل سجلماسة، وطرابلس وغيرهم. وكانت القافلة تصل الى اثنى عشر ألف جمل في فصل الصيف، محملة بالبضائع من ملح، وتمر، وغيره. وتخرج من السودان محملة بالصمغ، والعاج، والريش والذهب، والرقيق كلها تأخذ عليها البرابيش الغفر، الذي كانت قيمته سبع مثاقيل وثلث من الذهب، على كل حمل. ويأخذ عن التجار الواردين عليه من شنقيط ضريبة عن الإبل، التي يأتون بها؛ بقصد البيع في أروان ومن جاورها[3]. ومن هنا ندرك ثقل قبائل البرابيش في منطقة السودان الغربي، وبذلك مثلت قوة يحسب حسابها، إلا أن هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو: ما الذي وحَّد بينهم في تجمع يعرف بالبرابيش؟ هل هو تحالف سياسي؟ أم انتماء عرقي؟ أم ماذا؟ .

من خلال المصادر التي تمكنت من الإطلاع عليها، نلمس أن انتماءهم ليس سياسياً بقدر ماهو انتماء عرقي، والذي يدعم المعلومة السابقة كيف لهذا العدد

---

(1) - مجهول يبعث برسالة إلى جماعة أكلاد، وخصوصاً أميرهم انغلالن بن حوالن، مخطوط، مكتبة الباحث، دون تصنيف، ورقة واحدة.

(2)- ضريبة تؤدى عن كل رأس في القافلة.

(3)- محمد محمد الأرواني، الترجمان، مخطوط، ورقة 94.

الهائل من البشر، الممتد من موريتانيا إلى تشاد أن ينظوي تحت راية واحدة، وأن يقسم الأدوار الحربية، والقيادية، والعلمية، والخدمية، مالم يكن لهم انتماء عرقي يجمع بينهم؟

بعد أن انتهيت من الجانب السياسي، نتعرض إلى البنية الاقتصادية للسودان الغربي.